القضاء والقدر
في حياتنا

الطبعة الثانية

١٤٣٥هـ - 2014م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣ / ٨ /٢٨٨٧)

٢٤٤.٩

ولويل، كامل جميل

القضاء والقدر في حياتنا / كامل جميل ولويل ._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

(١٠٠) ص

ر.أ.: (٢٨٨٧/ ٨ / ٢٠١٣).

الواصفات: /القضاء والقدر//الإيمان /

❖ **يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.**

ردمك 978-9957-77-١٨٠-٥ ISBN

المأمون
دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

القضاء والقدر

في حياتنا

بقلم الدكتور

كامل جميل ولويل



دار المأمون للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

دعـاء

قال رسول الله ﷺ:

"لا يقـولـن احـدكـم اللـهـم اغـفـر لـي إن شئـت، اللـهـم ارحمنـي إن شئـت، ليعـزمْ المسألـة، فـإنـه لا مُـكـرِه لـه".

شكر وتقدير

أشكر ولدي اللذين حملا إلـي كتابـا في القضـاء والقـدر لمؤلفـه الشـيخ محمـد سلامة جبر، وأقدر فيهما معرفة فكرة الكتاب، وأقـدر حيرتهمـا في تلـك الفكـرة، وكثرة تساؤلاتهما فيها.

أشكرهما لاهتمامهما بدراســات الوالد كما يهتمان بصحته وعافيتـه وسـائر شأنه، أشكر المهندسين الكريمين وأوصيهما بالإستمرار على هذا النهج الذي اخـذا نفوسهما فيه بالجد والحزم، بـل وأوصـيهما بـالحق والصـبر مـا اسـتطاعا إلى الحـق والصبر سبيلا.

ما أجمل أن يقتبس القلم قوله سبحانه في سـورة الفرقـان (ربنـا هـب لنـا مـن أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما)، فإن الآية في موضعها قبس وأي قبس.

لقد لمست قرة العين هذه في كتابي هذا، فإن طباعتـه المتأنقـة ونشـره وتداولـه ثمرة من ثمرات جهودهما اليانعة أي جهود جميل وماهر، ألـيس هـذا مؤشـرا مـن مؤشرات قرة العين؟ إني اظن أن كل أب يدرك هـذه الحقيقـة؛ وأظـن أن كـل أب يشعر بالإستحياء إذ يشكر ولده فهو كأنما يشكر نفسه.

أدعوه سبحانه مخلصا له الدين فأقول: اللهم بارك لنا فيما اعطيتنا.

المؤلف

سبب تـأليف الكتـاب

من يقـرأ السبب يعـرف خـطـر المـوضوع الـذي بين يـديــه ويفــرض علـى نـفـسه التـأمـل والتأني وإليك بيان ذلك:

حمل إلي ولداي من الكويت إلى الأردن كتابا اسمه "المـذهب الحـق في القضـاء والقدر" لمؤلفه الشيخ الصديق محمد سلامة جبر كما ذكرت قبل قليـل؛ وهـو كتـاب صغير الحجم ولكنه واضح الرأي، وفكرته في القضاء والقدر محددة بصـورة كـبيرة ومؤثرة.

ألف الشيخ هذا الكتاب عام ٩٠، ثم الف كتابا آخر في القضـاء والقـدر بعـد سنتين وسماه القضاء والقدر عند الأئمة والأعلام؛ والكتـاب الثـاني لتقويـة الأول وتعزيزه.

اجتمع الكتابان عندي وقرأتهما قراءة المشوق، وأعدت قراءتهما بتعلق وحذر ووجدت أن سر حذري وتعلقي بهما هو مخالفتهما أو قل نقضهما لما اطمأننت إليه من أسرار القضاء والقدر، ولمـا اطمـأن إليـه خلـق ممـن صـحبتهم أو جـادلتهم أو استمعت إليهم، أو قرات لهم.

كنت أرى أن القضاء والقدر هما أمور واعمال وحوادث لا نستطيع التصرف بها، إنها لله فالله يخلق والله يحيي والله يميت والله يـرزق ويوسـع الـرزق أو يضـيقه والله يهب ذكورا لمن يشاء أو إناثا لمن يشاء أو يجعل بعض الناس عقيما، والله يبتلي عبده بالمرض ثم يخفف عنه ويمنحه العافية، كل هذه الأمور فيما كنت أظن وأمثالها

هي القضاء والقدر، وكنت أعلم أن الله تعالى أمر الملائكة أن تكتب ما يصيب كل إنسان من خير أو شر قبل خلق الناس بألوف السنين وقد كتبت، وإن الله تعالى يعلم ما يفعل عباده من خير أو شر قبل ان يخلقهم ولم يجبر أحدا على فعله، بل علمه وأذن به؛ لكن هل هذه الرؤية هي التي يقول بها الشيخ؟ لا ليست هذه الرؤية عند الشيخ الصديق ولا يوافق عليها بحال، ويرى أنها تقرب للكفر، قال الشيخ: [الإيمان بالقدر خيره وشره هو الركن السادس من أركان الإيمان ومن أنكره فقد كفر، ومن تأوله على غير وجهه الصحيح فقد ابتدع في دين الله ما ليس فيه][١] ، وقد استند إلى طائفة كبيرة من العلماء تقول كما يقول.

ما الوجه الصحيح لديه؟ لا بد من معرفة الوجه الصحيح الذي يراه الشيخ حتى لا نقع في البدعة، ولا نتأول الوجه الذي يراه حقا، فنقع في الكفر.

يقول: [إذا خلق الله خلقا للنار ويسرهم لعمل أهل النار فبعدله اللائق بجلاله والمناسب لذاته المنزهة المقدسة عن الشبيه والمثيل، وإذا خلق الله سبحانه وتعالى بفضله خلقا وأدخلهم في رحمته فبمحض جوده وفضله يسرهم لعمل أهل جنته، ولو كشف عنا الغطاء لعلمنا أسرار الإختصاص والتمييز في هذا المنع والعطاء] [٢].
فالله خلق والله يسر، وليس لإرادة الإنسان نصيب.

واستدل الشيخ بخطبة لعمر بن الخطاب في الجابية قرب دمشق قال فيها: [إن الله خلق أهل الجنة وما هم عاملون وخلق أهل النار وما هم عاملون][٣]، أي

---

(١) المذهب الحق في القضاء والقدر، ص (٥)، لمحمد سلامة جبر.

(2) المذهب الحق في القضاء والقدر، ص (١٨).

(3) المذهب الحق في القضاء والقدر، ص (٢١).

خلقهم وخلق أعمالهم، وليس لإرادة الأنسان نصيب.

واستشهد الشيخ بآيات عديدة وفسرها وفقا لرؤيته، وهي أن الله تعالى هو خالق أفعال العباد، ففي الآية ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾[1]، ينقل تفسير ابن عباس وهو: لا يطيعه إلا من وفقته لذلك؛ وبالمثل يفسر الآيات الكريمة: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾، وآية ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾، وآية ﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾، وآية ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾، وآية ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ ﴾، كلها تدل على أن الإنسان فاقد الإرادة والإختيار فيما يرى الشيخ الصديق وطائفة من أهل الرأي معه.

واستشهد أيضا بعدة أحاديث شريفة منها قوله ﷺ: "من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل اهل الشقاوة اعملوا فكل ميسر"

فالآيات والأحاديث كما فهمها الشيخ تشير إلى أن الإنسان لم يبتدع أعماله ولم يوجد أفعاله، بل خلقها الله تعالى كما خلقه وأوجده كما أوجده، وليس لإرادة الإنسان نصيب؛

وانتقل الشيخ بعد ذلك إلى آراء العلماء الذين يقولون بخلق الله تعالى أفعال العباد، ويقولون أن ليس للإرادة الإنسان نصيب في أفعاله؛ أي ليس له

(1) النساء آية (٦٤).

حرية اختيار أفعاله، لأن افعاله مخلوقة كما خلق رأسه ووجهه ويديه وقلبه ومعدته وسائر اعضائه.

قال الشيخ ينقل رأي الإمام ابن القيم: [يعني خلق الله فلانا من الناس وجبله على الخير حتى لا يصدر منه إلا الخير كالصديق رضي الله عنه، وخلق آخر مجبولا على الشر حتى لا يصدر منه إلا الشر كأبي جهل، هذا الأمر من أسرار القدر التي لا نعلمها ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون][1].

هذا ابن القيم، وأما الإمام الغزالي فكان أحسم بكثير من غيره، فهو يرى (أن كل إنسان مربوط بخيط رفيع جدا لا يدرك بالأبصار، ولكل خيط مربط بيد ملك يحرك به الإنسان، وقد رأى العارفون – ويقصد بهم الغزالي أصحاب المراتب العليا في التصوف – رأوا مرابط الخيوط كما رأو الخيوط أيضا)، ويقول الغزالي والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا انهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون، إلا العارفون وهم العلماء الراسخون، فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل ادق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض)[2].

وينصح الإمام الغزالي العلماء ألا يشرحوا القضاء والقدر أمام الناس العاديين، لأن هذه المعرفة أنوار باهرة فتبهتر المؤمنين العاديين فيقعون في الضلال؛ قال الغزالي: [لا تكشفوا حجاب الشمس لأبصر الخفافيش،

---

(1) القضاء والقدر عند الأئمة الأعلام ، ص (٤٥) .

(2) القضاء والقدر عند الأئمة الأعلام ، ص (٤٥) .

فيكـون ذلك سـبب هـلاكهـم][1] .

وقال بمثـل قــول ابـن القيــم والغــزالي علمــاء آخــرون مثـل ابـن حــزم والـدهــلوي والـدكتورعمــر الاشــقر، واقتطـف العبــارات الآتيـة مـن أفكــار الـدكتور عمـر الأشـقر وهي قـوله: [لا يخـرج العبـاد وأفعـالهم عـن غيرهـم مـن المخلـوقات، فقـد علـم الله ما سيخلقــه مـن عبــاده وعلــم مـا هــم فاعلــون، وكتب كل ذلك في اللوح المحفــوظ. وخلقــهم الله كمــا شــاء، ومضـى قــدر الله فيهـم، فعملـوا على النحـو الـذي شـاءه فيهـم، وهــدى مـن كتـب لـه الســعادة وأضـل من كتب عليـه الشـقاوة، وعلـم أهــل الجنــة ويســرهم لعمــل أهلهــا، وعلـم أهـل النـار ويسـرهم لعمـل أهلهـا][2].

ثم يذكـر الـدكتـور الأشـقـر عــدة آيـات تـدل فيمـا يــرى أنهــا صـريحــة واضحـة المعـاني في أن الإنسـان مخلــوق وأفعــاله مخلــوقة، مثــل قــوله تعــالى: (والله خلقـكم وما تعملـون).

ويتســـاءل بعـد ذلك كلـه بقـوله: (فـإن قـال قـائل لا ننكـر مقتضـى هــذه الآيـات الصـريحـة، ولكـن كيف يتـفق أن يكلـف الله بالطـاعة والإيمـان مـن أراد لـه من عبـاده الكفـر والعصيـان؟ الجـواب: وكشـف السـر عـن هــذا الإشــكال العظيـم لـو كـان ممكنـا، وكـان من طـاقة العقـول البشــرية قبــوله لوجـب علـى رسـول الله ﷺ أن يبينـه ولا يكتمـه، ولكـن لمــا ثبـت في الحــديث الصــحيح أن رسـول الله ﷺ غضب من أصحـابه لمــا ســمعهم يتجـادلــون في القــدر واحمــر

---

(1) احياء علوم الدين ، جـ ٤ ، ص (٨٦) ، طبعة بيروت بدار المعرفة .

(2) القضاء والقدر، د . عمر الأشقر، ص (٣٨) .

وجهه كأنما فقئ فيه حب الرمان وقال: [أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه][1].

إذن يستند شيخي إلى آيات كريمة واحاديث شريفة وآراء علماء عديدين، وقد استوى الأمر لديهم جميعهم أن الإنسان مخلوق وأن افعاله مخلوقة، وإن الكشف عن هذا السر محال والجدال فيه باطل، تلك الفئة خلقت للجنة فييسرها الله لعمل أهل الجنة، وتلك الفئة خلقت للنار فييسرها الله لعمل أهل النار، بل ذكر الدكتور عمر الاشقر أن الناس كسائر المخلوقات، فالشجر مسخر والحيوان مسخر والنجم مسخر والإنسان مسخر لأن الله تعالى خلقه وخلق عمله؛ وشاهد بعض العارفين خيوطا تربط الناس وتسخرهم.

ولو كنت متفقا مع شيخي فيما ذكر، أو متفقا مع العلماء الأفاضل فيما ذهبوا إليه لما قمت بتأليف هذا الكتاب، وسيكون لي موقف من آرائهم وموقف آخر مع مختلف الآيات والأحاديث التي استشهدوا بها لأبين أن المعاني التي اخذوها من الآيات لم تكن صحيحة، وإنما للآيات معان اخرى وللأحاديث معان اخرى، لقد استشهدوا بآيات كريمة وهي لا تشهد لهم، واستشهدوا بأحاديث شريفة وهي لا تشهد لهم أيضا، وسأبين ذلك بحثا وتفصيلا في الصفحات التالية، ولكنني أشكر كل مفكر تؤدي أقواله

---

(1) القضاء والقدر، ص (٨٠)، د . عمر الأشقر .

إلى حث الهـمم على البحث، لأن البحث لـن ينتهـي في كتــاب الله حتـى تنتــهي الحيـاة ذاتهـا.

بداية الإختلاف في القدر

لم تجتمع آراء العلماء على فهم واحد للقضاء والقدر، كان هناك آراء، ولكن انقسمت الآراء إلى طريقين بارزين واضحين، وقد عزز كل منهما رايه بآيات كريمة وأحاديث شريفة ومفاهيم في تلك الآيات والأحاديث وتفاسير يقبلها النص الذي يستشهد به؛ والذي يهمنا الآن معرفة شئ عن هذا الإختلاف ومظاهره.

لم يبدأ الخلاف بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وإنما بدأ في حياته وسمع خلاف أصحابه، واستمر بين أصحابه بعد وفاته. واختلفت الآراء واختلفت تفاسير المواقف، ولكن ظل المؤمنون مؤمنين، وظل المسلمون مسلمين، ولم يكفر النبي أحدا؛ وهذا هو البيان:

أ – الإختلاف في عهد النبي ﷺ :

١. روى الترمذي وروى ابن ماجة أيضا أن رسول الله (ﷺ) سمع أصحابه يتجادلون في القضاء والقدر فغضب منهم واحمر وجهه كأنما فقئ فيه حب الرمان فقال: " أبهذا امرتم، أم بهذا أرسلت إليكم، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه ".

٢. وروى مسلم في صحيحه: عن أبي الأسود الدئلي قال: قال لي عمران بن حصين رضي الله عنه: أرايت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق

أو فيمـا يسـتقبلون بـه مما قــد أتــاهم بــه نبيهــم (ﷺ) وثبتـت الحجـة عليهـم؟ فقلت بـل شـيء قضي عليـهم ومضى عليـهم، قال: فقـال: أفـلا يكـون ظلمـا؟ قال: ففـزعت من ذلك فـزعا شـديــداً وقلـت: كـل شـيء خلق الله وملك يده فلا يسـأل عمـا يفعــل وهــم يسـألــون، فقـال لـي: يـرحمـك الله إني لم أرد بما سـألتك إلا لحـرز عقلك. إن رجلين من مــزينة أتيـا رسول الله (ﷺ) فقـالا يا رسول الله أرأيت مـا يعمــل النـاس اليــوم ويكـدحـون فيـه أشيء قضي عليـهم ومضى فيهم من قـدر قـد سـبق أو فيمـا يسـتقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجـة عليـهم، فقـال: لا بـل شيء قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلـك في كتــاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾.

(ونفس وما سـواها فألهمـها فجـورها وتقـواها)

ب – الإختـلاف بعد وفـاتـه ﷺ :

١. أراد عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه أن يـدخل بـلاد الشـام وكــان قــد أصـابها الطـاعـون في ذلك العـام ولم يعـلم عمر بـذلك، فلمـا اقتـرب من دمشـق علم بخبـر الطـاعــون مـن الصحــابة الأجــلاء كمــا ذكــر ابـن عبـاس وكـان عمـر عنــد ذاك في مكــان إســمه ســرغ، فاستــشار أمـير المــؤمنين الصـحابة أيـدخلــها أم لا، فــرأوا جميعــا ألا يـدخلهــا فقــال لصحبـه: إني مصبـح على ظهـر فأصبحوا، فقـال أبـو عبيـدة افــرارا مـن قـدر الله إلى قـدر الله؟ فقـال عمر: لو غيـرك قـالها يا أبـا عبيــدة، وكــان

عمر يكره خلافه، ثم قال: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو كان لي إبل فهبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعت الخصبة أو الجدبة رعتها بقدر الله)[1].

إذن الخلاف بين قطبين من اقطاب الإسلام، ولهما في الصحبة باع طويل وتاريخ حافل، وهما الآن على خلاف في القضاء والقدر وشرحه وتفسيره، ولم يرفع احدهما صوته أو درته أو سيفه، ولم يتراشقا التهم، إنه فهم لموقف.

وجاء عبد الرحمن بن عوف وعرف ما يتجادل الناس فيه، فقال: (إن عندي من هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه، فحمد الله عمر بن الخطاب وأثنى عليه)[2].

٢. **معبد الجهني:** يرد ذكر هذا الرجل في كتاب صحيح مسلم بشرح النووي، قال النووي انه هو اول من تكلم في البصرة بالقدر فسلك اهل البصرة بعده مسلكه، وفسر ابو السعيد التميمي عبارة (اول من تكلم بالقدر) بقوله: انه من نفى القدر وخالف الصواب الذي عليه اهل الحق، وقال النووي (واعلم ان مذهب اهل الحق اثبات القدر ومعناه ان الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه انها تقع في اوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب

(١) مختصر صحيح مسلم للألباني ، (٢ / ١٠٥) .

(٢) مختصر صحيح مسلم للألباني ، (٢ / ١٠٥) .

ما قدرها سبحانه وزعمت القدرية انه سبحانه لم يقـدرها ولم يتقـدم علمـه سبحانه وتعالى بها)[1].

إنها آراء متضاربة جدا، وإذا قلت فسلك أهل البصرة مسلكه، مـن هـم أهـل البصرة؟ هم رواد العلم في ذلك العصر، فليس أهل البصرة مجموعة من الجهلة، لا بل كان فيهم الفقهاء والعلماء والحفظة وأصحاب القراءات ورواة الحديث، وهـذه الرواية من معبد الجهني هي من روايات التاريخ، وتدور وقائع الكلام في القـدر في صدر الإسلام الأول. فعبد الله بن عمر من الصحابة الصغار، وقد ذكرت روايـات أخرى أن عبد الله بن عمر سـئل عن أقوال معبد الجهني فأنكرها عليـه وقـال: (إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء وأنهم مني برءاء والذي نفسي بيـده لـو أن لاحدهم مثل أحـد ذهبـا فانفقه في سبيل الله مـا قبـل الله منـه شـيئا حتـى يـؤمن بالقدر خيره وشره)[2]. مـا زالت الـرواية من روايـات التـاريخ، ولا نسـتطيع أن نكفر أحـدا بروايـة تاريخيـة، ولو صدقت الرواية التي ذكرت عن ابن عمر لما تباطـأ الخليفة عن كف أذاهم ولحاسبهم على الردة التي وقعـوا فيهـا، فـإن أحـدهم فيمـا يقول ابن عمر لو أنفق مثل أحـد ذهبا لمـا قبل منه؛ إنها رواية تاريخيـة ولا تصلـح لأن نتبنـاها كعقيـدة إسـلامية؛ ولا تصلـح لأن يأخـذ المـؤمنون بها ولا أن نقيـس عليهـا.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم – باب الايمان

(2) المذهب الحق في القضاء والقدر، ص (٦) لمحمد سلامة جبر .

جـ -الخلاف في كتابي الصحيح للبخاري ومسلم:

روى الإمام مسلم في كتابه الصحيح ثمانية عشر حديثا في القدر، وروى الإمام البخاري في صحيحه خمسة أحاديث في القدر، ولم يتفقا إلا بعض اتفاق في حديث واحد هو قوله (ﷺ) كما في صحيح مسلم: " اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك "، وقوله (ﷺ) كما في صحيح البخاري: " لا ومقلب القلوب " إذن لم تثبت لدى العالمين تلك الروايات العديدة في القدر، ولا اتفق اطمئنانهما الى عشرات الروايات في القدر، برغم وجود الحديث في القدر على أشده في عهدهما، إذ كانت قوة المعتزلة في أوجها، وقد استنصرت ببعض الخلفاء فأيدوها، برغم كل ذلك الحديث أو الجدال الحاد في القدر إلا أن الإمامين المحدثين لم يذكرا ما تطمئن به النفوس في هذا الموضوع؛ لأن نفوسهما لم تطمئن لتلك الروايات الجارفة في القضاء والقدر ولا اتفقا فيما بينهما على ما روياه.

إن هذا يعني أن المسلمين لم يكن لهم خط واضح في القضاء والقدر، ولم تكن الروايات مجمعة على شيء محدد فيه، ولم تكن الآراء فيه اجماعية ولا جماعية، إنه بحث إسلامي وفيها عدة آراء، وعلى المسلم أن يجتهد إن استطاع أو يسأل قدر المستطاع من غير أن يؤدي ذلك إلى تناحر أو تصادم أو تكفير أو اتهام، فإن الآراء الخلافية في بعض القضايا كثيرة، ولكنه البحث الذي يؤجر صاحبه أصاب أم أخطأ.

أبرز رأيين في القدر

رأى بعض العلماء ولا سيما السابقون منهم أن الله تعالى خلق الإنسان وخلق أفعاله، ورأى آخرون من العلماء ولا سيما المعاصرون منهم أن الله تعالى خلق الإنسان، وترك له حرية التصرف، وأنزل الرسل للتوجيه والإرشاد فيظهرون للناس ما يحسن أن يأخذوا به من الأعمال، ويظهرون لهم جميع الأفعال التي ترضي الله وينهونهم عن الأفعال التي تغضبه، ويأمرون الناس أن يصبروا على أمور يبتليهم الله تعالى بها كضيق في الرزق أو نقص في المال والثمرات، أو نقص في الأنفس، فهي من الله تعالى ولا أثر للناس فيها، كما يأمرونهم أن يصبروا على مظالم قد يتعرضون لها من أناس ظالمين أقوى منهم، وعليهم ان يحاولوا إزالة الظلم ما امكنهم وأن يدعوا الله أن يعينهم في جميع شؤونهم.

لقد استخلصت الآراء من اقوال العلماء، وأستبق الآن أقوالهم لأيسر معرفتها وليكون لدى القارئ فكرة واضحة محددة عن القضاء والقدر قبل أن تذكر كلماتهم حرفا حرفا:

أ – الرأي الاول:

خلاصة هذا الرأي أن الله تعالى خلق الإنسان وخلق أفعاله، فإذا آمن فبفضل من الله وتوجيه منه، وإذا كفر فلأن الله سبحانه أشربه في قلبه

الكفـر. وإذا رأيـنا الإنسـان مستقيما أو شـاء أن يكـون مسـتقيما، فليـس لـه في ذلك فضـل أو تأثير لأنـه سبحانه وتعـالى يقـول في سـورة التكويـر: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، والمعنى أن مشيئة الله أولا ثم تشاء أنت بـأثر مـن مـشـيئة الله عليك. إنك مـرتبط بخيط بيـد ملـك يديـرك ولا تـرى الخيـط، حتـى لـو أراد المشـرك أن يؤمن فإنـه لا يسـتطيع لأن الله تعـالى يقــول: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فهـو يمنـع المشـرك من الإيمان ويمنع المـؤمن من الكفر.

ويـرون أن كل إنسـان يـريد أن يقــوم بعمـل لا بــد أن يتــوفر لـه شـيئان **أولهمـا:** النيـة أو ما يسـمى أحيـانا العـزم والإرادة. **وثـانيهمـا:** إنهـاض الجـوارح للعمـل، وهـذان الأمــران لا يملكهمــا الإنســان، بـل همــا لمــن يختصــهما الله بـرحمتـه، ويمنعـا عمـن حـرمه الله تعـالى من هذه الرحمـة.

ويقـولون قد علمتـم قوله سبحانه: (والله يختــص بـرحمتــه مـن يشــاء)[1]، والإختصـاص لا يـكون لسـائرالأمـم والفئـات بل لفئـات دون فئـات.

ويسـتشـهدون بآيات عـديدة واحـاديث متعــددة تعــزز مـوقفهم وفهمـــهم للقضـاء والقدر بأنه خلق أفعـال العبـاد، فيتـلون قـوله سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[2]، وتـجد مـن كتـب التفسـير مـا يؤيــد وجهــة النظر هذه بشـدة، قال ابن كثيـر: قال ابن عباس: يوسع قلبه للتوحيـد والإيمان به،

(1) سورة البقرة (١٠٥) .

(2) سورة الأنعام (١٢٥) .

ويتـــلون قولــه تعــالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[١]، يقول ابن جرير في شــرح هـذه الآيـة: ومـا يـذكرون هـذا القــرآن فيتعظـون بـه ويسـتعملون ما فيه إلا أن يشـاء الله أن يذكروه لأنه لا احد يقدر علـى شـــيء إلا بأن يشـاء الله فيعطيـه القـدرة عليـه؛ ويتلـون قولـه تعـالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[٢]. قال ابن جرير يفســرها: لا تـــزغ قلـــوبنا، لا تملـــها فتصـرفهـــا عـــن هـــداك بعـد إذ هـديتـنا له فوفقتـنا للإيمـان بمحـكم كتابـك ومتشـابهه، وهب لنا يا رب من لدنك رحمة، هب لنا من عندك توفيقـا وثبـاتـا للذي نحن عليـه، إنـك انت الوهـاب المعطي عبـادك التـوفيـق والسـداد والثبـات على ديـنك؛ ويتـــلون غيـــر ذلك.

ولهذا الراي استشهادات من الأحاديث الشـريفة عـدد وافـر، وتـدل مخـــتلف هذه الأحـاديث ان الإنسـان ملـزم في أقـواله وافعـاله، لأنهمـا كلاهمـا أوجـدهما الله سـبحانه وتعالى وليـس للإنسـان في ذلك أي قـدر مـن التصـرف ولا أي حـظ من التغيـير والتبـديل، قال رسول الله ﷺ "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلـبي علـى دينك" وفي رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص قال سـمعت رسول الله ﷺ يقـول: "كتب الله مقـادير الخـلائـق قبل أن يخـلق السـموات والأرض بخمسـين الف سـنة، وقال وعـرشـه على الماء؛ وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: كنا في جنازة في بقـيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقــعد وقعــدنا حــوله ومعـه مخصـرة فـنكـــس

---

(1) سورة المدثر (٥٦) .

(2) سورة آل عمران (٨) .

فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: " ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية او سعيدة، قال رجل يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال النبي ﷺ من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة وقال: اعملوا فكل ميسر، أما اهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة " ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ .

كما استندوا إلى أحاديث أخرى ولكنها تحمل المعاني المذكورة في الأحاديث السابقة؛ أي تحمل الرأي القائل أن الله تعالى خلق الإنسان جسما وروحا وخلق أفعاله خيرها وشرها.

ب – الرأي الثاني:

هذا الرأي مختلف جدا عن الرأي الأول، له تاريخه الخاص به، ولكنا لسنا بصدد تاريخ أو فرق معينة، ولكننا نريد الرأي الذي له غلبة قوية ويقف بارزا بقوة أمام الرأي الاول. وخلاصته هي: إن الله تعالى خلق الخلق، وأسكنهم في الأرض ليعبدوه ويعمروها، وأعطى الإنسان الحرية في اختيار أفعاله لا قهر في ذلك ولا اجبار، وأمره بأوامر ونهاه بنواه وهذا هو التكليف. وقد بني على ذلك الثواب والعقاب، فمن آمن فقد اختار لنفسه الإيمان، ومن كفر فقد اختار لنفسه الكفر، وكل ذلك يقع ضمن السنن الكونية التي وضعها الله

تعالى لخلقه، ولا خروج عن أي سنة منها.

ويحدد أصحاب هذا الرأي معنى القضاء والقدر بما يلي:

يقولون إنه الأشياء التي ليس لك فيها يد ولم تفرضها لنفسك ولا تتحكم بها، وإنما فرضت عليك فرضا. فصورتك الحالية من طول أو قصر من بياض أو سواد، من لسان طليق أو متعثر، من الذكاء الخارق أو الذكاء المتوسط، من طول في العمر أو توسط أو قصر، من رزق واسع أو مقطوع، إنه كله سبحانه وضعه وقدره ولا نملك فيه التغيير والتبديل، إنه هو القضاء والقدر.

ورأي أصحاب هذا المذهب في القضاء والقدر، أن الله كتب مقارير الأشياء قبل خلق السموات والأرض تعبيراً عن علمه تعالى بكل ما سيحدث إلى قيام الساعة. فلا يحدث شيء في الملكوت إلا بعلمه، وقد علم سبحانه ما سيكون من الإنسان باختياره من هدى أو ضلال، وخير أو شر، وليس في علمه تعالى أي معنى من معاني الإلزام والقهر والإجبار. ويترتب على افعال الإنسان محاسبته، فإن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، فيدخل الإنسان الجنة بعمله أو يدخل النار بعمله.

وهناك آيات كثيرة وأحاديث كثيرة يستند إليها أصحاب هذا المذهب، فيتلون قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، ويتلون قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، ويتلون قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ ويتلون قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ وقوله سبحانه:

﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾.

ويتلون الأحاديث الشريفة التي ترتب على العمل الجزاء، قال رسول الله ﷺ: "إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف"، وذلك يعني أن من يقاتل في سبيل الله يدخل الجنة، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: "تضمن الله لمن يخرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادا في سبيلي وإيمانا بي وتصديقا برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من اجر أو غنيمة"[1]... إلى آخر الحديث.

يقولون إن هذه الآيات وتلك الأحاديث تدل على التكليف المباشر للإنسان، وإن الإنسان هو الذي يفعل أو يترك، ومثل ذلك مئات الآيات ومئات الأحاديث التي يبدو فيها بجلاء لا يقبل الجدال أو الحوار أن الله تعالى يأمر أو ينهى البشر ويرتب على أعمال الناس الجزاء، يأمر الناس بالصلاة والزكاة وحسن الجوار وصلة الرحم، فمنهم من يستجيب ومنهم من لا يستجيب، ويرتب سبحانه بأقواله الكريمة أو اقوال نبيه ﷺ الجزاء على الأعمال، فكيف يجوز أن يفكر مسلم بان كل هذه الآيات قابلة للتأويل، أو لا

(1) مختصر صحيح مسلم (٢ / ٤٤)، الألباني.

بد من تأويلها ليصح التقاؤها مع الرأي الأول القائل بأن الله تعالى خلق أفعال العباد، ويقولون إذا حسن أن نؤول في الشيء النزر اليسير فلا يحسن التأويل في القرآن في معظمه، إذن الإنسان مأمور ومنهي وله حرية الإختيار بين الطاعة أو المعصية، والله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان بهذا الإختيار، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾، فإذا كانت المخلوقات جميعها لا تملك الإختيار والإستجابة أو عدم الإستجابة فإن الإنسان فضل على جميع المخلوقات بركوبه ورزقه الطيب وتفكيره واختياره أفعاله؛ فإن الدواب مسخرة في اتجاه واحد، ولكن الإنسان يؤمن ويكفر، يفعل ويترك، فلأعماله اتجاهان وهذا مميز عام له في سائر حياته وسائر عمله.

الخلاصـه:

إن الرأيين متعارضان جدا، متناقضان تمام التناقض، ولكل مسوغاته، ولكني أتساءل لماذا لم يأخذ كل طرف حجج الطرف الأخر ليحاوره فيها. إن الآيات التي تدل على إلزام الإنسان بأفعاله متعددة، فيجب دراستها وكشف معانيها، وبيان أنها لا تطابق الفكرة المستخلصة، وأنها آيات فهمت على غير الوجه الحق. وعلى الفئة الاخرى مثل ذلك، اي عليها أن تستحضر تلك الآيات التي يستشهدون بها لتبين أن معانيها وتفسيراتها لا تعزز آراءهم، لو توقف كل فريق عند الآيات كلها التي يستشهد بها عند هؤلاء وهؤلاء لما وقع هذا الخلاف، لكن الفريق يستند إلى بعض الآيات ويترك

الأخرى فيقع الإشكال.

إن هذه الصفحات تتناول جميع الآيات المتعلقة بالإختيار أو خلق افعال العباد التي وردت عند الفريقين، وتستخلص النتائج من النظر إليهما جميعا؛ ولا تتغاضى عن آيات قد تؤدي لنقض الرأي كما لا تتغاضى عن آيات تؤدي إلى تعزيز الرأي. عليك بهذه الصفحات تدرسها جميعها، ولدى الباحث ثقة أن هذه الدراسة الشاملة ستؤدي إلى رأي واضح له علته ووجاهته ويتناسق مع قوله ﷺ: "تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها".

أقـوال بعض العلمـاء في القـدر

سـيكون لـذكر اقـوال بعض ائمـة العلم في القضــاء والقــدر خطــر بالــغ، وأهميـة متميـزة، فإن كلمـاتهم سـتجلو مفهـوم القــدر الـذي يحيــطه الغمــوض أحيـانا إلى أقصـى مـدى ممـكن من الجــلاء. وسـنجد تعـارضا شـديـدا لـديهم في أقـوالهم، ولـكن ديـننا الحنيـف وضـع فينا طاقـة كبيـرة من تقبـل الآراء المختلــفة أو المتـناقضة، لكن مـع وجـود قـاعدة الإيمـان بما جـاء به الرسـول ﷺ. إن المـؤمن بـحق يحـاسب على قنـاعته، وإن آراء هـؤلاء العلمــاء كمــا خلفــوها للأجيــال المسـلمة بكلمـاتهم وأقـوالهم تـوضـع الآن بين أيـديـنا، وعليــنا أن نبـذل جــهدا لنـعرف الـراي الذي اخـذوا به مـع حجـجـه التي تعــززه، وعـليــنا ألا نتــعجل ولا نتسـرع. يجب أن نعـرض اقـوال مختلف العلمـاء، ونحن مســؤولون أمــام الله تعالى عن كل قنـاعة.

إن بعض هــؤلاء العلمــاء مــا زال بصــحة جيــدة، يحيـى بنعمــة مـن الله وفضـل، ويعطي من رأيـه الإسـلامي مـا يسـتطيع وما شـاء الله له أن يعطي، مثل: الشـيخ الشـعراوي والشـيخ الدكتور عمر الأشـقر والشـيخ محمـد سـلامة جبــر. ولكن بعضـهم الآخـر قضـوا نحبـهم وخلفـوا لنا علمـا ندرسـه ونتفهمـه ونأخــذ به أو نتـركه أو نتـوسـط في ذلك، معتمـدين على سـلامة الحجـج والأدلة وحسـن الإسـتنـتاج، منهم: ابن القيـم الجـوزية، والدهلوي، وتقي الدين النبـهاني، محمـود شـلتوت والغـزالي، وغير هـؤلاء وأولئـك؛ وسـابدأ بـذكر العلمـاء الذين أخـذوا بمبـدأ أنَّ الله تعـالى خـلق أفعـال العبـاد.

أ – العلماء الذين قالوا بخلق أفعال العباد:

أولا: ابن القيم:

هو أحد الذين رأوا أن الله تعالى خلق الإنسان وخلق أفعاله أيضاً، وهذه طائفة من أقواله كما وردت في كتابه شفاء العليل في الصحيفة التاسعة والتسعين:

١ – كل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد.

٢ – حقيقة القدر تعني أن الله أراد منذ الأزل أن يكون الأمر والخلق على ما هو عليه، فلما كتب سبحانه مقادير كل شيء في اللوح المحفوظ كان ذلك وفق إرادته السابقة، ومشيئته المطلقة، وليس المعنى أن الله قد علم من خلقه ما يكون منهم فكتب سبحانه ذلك.

٣ – ويبقى إعتراض من يعترض بأن هذا المعنى للقدر لا يتفق وإيماننا بعدل الله سبحانه، إذ كيف يحول سبحانه بين المرء وقلبه ثم يعذبه وكيف يأخذه بيده إليه ثم يكرمه؟ وجواب ذلك أن مبدأ الضلال أن نحكم عقولنا فيما جاءنا نصا صريحا من عند ربنا؛ وسأختار هنا إن شاء الله تعالى بعض الآيات الدالة على تفرده سبحانه بخلق

أفعال العباد:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾.

ثانيا: ابن حزم:

وردت أفكاره جلية في كتابه – الفصل في الملل والنحل – قال ابن حزم:

١ – إن كل ما فعله الله تعالى من تكليف ما لا يطاق وتعذيبهما عليها، وخلقه الكفر والظلم في الكافر والظالم ثم تعذيبها عليه، وخلقه الكفر وغضبه منه وسخطه إياه، كل ذلك من الله تعالى عدل وحكمة وحق، وممن دونه تعالى سفه وظلم وباطل، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

٢ – ويكون الهدى بمعنى التوفيق والعون على الخير والتيسير له وخلقه لقبول الخير في النفوس، فهذا هو الذي أعطاه الله عز وجل الملائكة كلهم والمهتدين من الإنس والجن ومنعه الكفار من الطائفتين والفاسقين فيما فسقوا فيه، ولو أعطاهم إياه تعالى لما كفروا ولا فسقوا وبالله تعالى التوفيق.

٣ – نص الله تعالى على أنه برأ المصائب كلها فهو بارئ لها، والبارئ

هو الخالق نفسه بلا شك، فصح يقينا أن الله تعالى خالق كل شيء إذ هو خالق كل ما أصاب في الأرض وفي النفوس،....الخ، وقد تكون تلك المصائب أفعال الظالمين بإتلاف الأموال وأذى النفوس، فنص تعالى على أن كل ذلك خلق له تعالى وبه عز وجل التوفيق.

ثالثا: الإمام الغزالي:

هذه الأقوال التي تجدها بين يديك وردت في كتابه المشهور "إحياء علوم الدين" في جزئه الرابع في الصفحة السادسة والثمانين وما حولها؛ ولم أجد من يعبر عن خلق الله لأفعال العباد كما عبر عنها الغزالي، قال الإمام:

١ – لأن العقل المجرد عاجز عن إدراك سر القدر نهانا رسول الله ﷺ عن الخوض فيه، فقال إذا ذكر القدر فأمسكوا – رواه الطبراني بسند حسن، وهذا دليل على أن القدر ليس هو العلم الإلهي فقط، وإلا لما نهينا عن الخوض فيه، ولما كان في القدر سر لا تصل عقولنا إليه، فإن الإيمان بإحاطة العلم الإلهي بكل الموجودات أمر لا يماري فيه مسلم، وحل الإشكال في القدر بإضافة المقدورات إلى مجرد علمه سبحانه أمر يسير، بينما المشكل نسبة تفرده سبحانه بالتقدير حسب مشيئته المطلقة وجريان ذلك بقدرته وحدها، لا شريك له في التقدير كما لا شريك له في جريان الأقدار على وفق التقدير بل المتفرد بالتقدير

هو الله والتفرد بالخلق هو الله.

٢ – فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة، إلا أنك لا ترى إلا نفسك، فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فتضيفه إلى نفسك، وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا إلى لعب المشعبذ (في مسرح العرائس)، الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد، وهي مؤلفة من فرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل، ورءوسها في يد المشعبذ وهو متحجب عن أبصار الصبيان، فيعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد، وأما العقلاء فيعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك، ولكنهم ربما لا يعلمون تفصيله.

رابعا: الدهلوي:

قال الشيخ في كتابه "حجة الله البالغة " في الصحيفة السابعة والثلاثين بعد المئة وما بعدها ما يلي:

١ – (اعلم أن الله تعالى شمل علمه الأزلي الذاتي كل ما وجد أو سيوجد من الحوادث، محال أن يتخلف علمه عن شيء أو يتحقق غير ما علم. وهذه المسألة شمول العلم وليست بمسألة القدر الذي دلت عليه الأحاديث المستفيضة، ويتجه عليه السؤال بأنه متدافع

مع التكيف وإنه فيمَ العمل؟ هو القدر الملزم الذي يوجب الحوادث قبل وجودها)[1].

ملاحظة: يقصد الدهلوي أن علم الله المحيط ليس هو المقصود بالقدر، ولكن القدر هو تقدير الأشياء قبل خلق الدنيا، ثم حدوث كل ما قدر إلزاما أي بفرض من الله تعالى؛ فأعمالك خيرها وشرها مقدرة من الله تعالى تقديرا إلزاميا، كما قدر نزول المطر ورزق الدابة وعمر الإنسان.

٢ – باب اختلاف الناس في جبلتهم المستوجب لاختلاف أخلاقهم وأعمالهم ومراتب كمالهم والأصل فيه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: " إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوا به فإنه يصيرغلى ما جبل عليه "[2].

ملاحظة: يوجد آيات كثيرة تمدح الذين غيروا وبدلوا حسنا بسيء، فبدل الله سيئاتهم حسنات، كان الأنصار عبدة أصنام ثم صاروا أنصارا، وهذا الشيء يقع في كل العصور وما زلنا نراه في عصرنا؛ القرآن والواقع لا يتفقان مع ما ذكر إنه حديث.

خامسا: الدكتور عمر الأشقر:

قال الشيخ كلاما لا يخرج عن المجرى العام للشيوخ الأربعة السابقين:

---

(1) حجة الله البالغة للدهلوي ، ص ١٣٧ .

(2) حجة الله البالغة للدهلوي ، ص ٥٤ .

قال الدكتور عمر: (لا يخرج العباد وأفعالهم عن غيرهم من المخلوقات، فقد علم الله ما سيخلقه من عباده وعلم ما هم فاعلون، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما يشاء ومضى قدر الله فيهم فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم، وهدى من كتب الله له السعادة وأضل من كتب عليه الشقاوة، وعلم أهل الجنة ويسرهم لعمل أهلها وعلم أهل النار ويسرهم لعمل أهلها)[١].

واستشهد الدكتور بآيات واحاديث وحوادث تاريخية تثبت صحة ما يقول:

أ – الآيات القرآنية: قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾[٣]. وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٤].

ب – الأحاديث الشريفة:

١) روى الإمام مسلم في صحيحه أن أبا هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر.

(1) كتاب (القضاء والقدر للدكتور عمر الأشقر)، ص ٣٧٥.

(2) سورة الصافات، آية (٩٦).

(3) سورة القمر، آية (٥٢).

(4) سورة الأحزاب، آية (٣٨).

٢) وروى الإمام مسلم عن عائشة أم المؤمنين قال: "دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا الصبي عصفور من عصافير أهل الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال النبي: أوغير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم".

جـ -**الحوادث التاريخية:** عمر بن الخطاب في زيارته للشام وقد سمع قبل دخولها بانتشار الطاعون فتردد في الدخول، فقال أبوعبيدة: يا أمير المرمنين أفرارا من قدر الله؛ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كانت لك إبل هبطت واديا له عدوتان احداهما خصيبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ وحل الإشكال بين الصحابيين الكبيرين عبدالرحمن بن عوف، إذ قال: عندي علم عن ذلك من رسول الله ﷺ، وتلا قول النبي "اذا انتشر الطاعون في أرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها وإن كنتم خارجها فلا تدخلوا فيها".

سادسا: الأستاذ محمد سلامة جبر:

يقول الأستاذ جبر: (إن عقيدة القضاء والقدر على الوجه الذي يدين به أهل السنة تعني أن الإنسان مجبور في أفعاله الإختيارية، وهذا يؤدي إلى نسبة الظلم إلى الله تعالى، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون

علوا كبيرا، ودفع هذا الإشكال يسير بعون الله، فإن الحق واحد لا يتعدد، والحق هو ما أنزله الحق، قال سبحانه في سورة الإسراء (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل). وإذا كان هناك تعارض للحق مع ظاهرالعقول فالمتهم العقول ولوكان أصحابها من العلماء والفحول)[١].

ويقول: (إذا خلق الله للنار خلقا ويسرهم لعمل أهل النار فبعدله اللائق وبجلاله المناسب لذاته المنزهة المقدسة عن الشبيه والمثيل، وإذا خلق الله خلقا أدخلهم في رحمته فبمحض جوده وفضله يسرهم لعمل أهل جنته، ولو كشف عنا الغطاء لعلمنا أسرار الإختصاص والتمييز في هذا المنع والعطاء)[٢].

إذن رأي الأستاذ في القدر هو: إن الله تعالى خلق الخلق وهو الذي وضع في هذا الإنسان العدل فأصبح عادلا، ووضع الظلم في هذا الإنسان فصار ظالما، وقد استشهد على ذلك بأقواله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[٣]، و﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾[٤] و ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن

(1) المذهب الحق في القضاء والقدر، محمد سلامة جبر، ص (١٥).
(2) المذهب الحق في القضاء والقدر، محمد سلامة جبر، ص (١٨).
(3) سورة البقرة، آية (١٠٥).
(4) سورة الأنبياء، آية (٢٣).

قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1]، و﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[2].

ملاحظة: إلى هنا تنتهي الأفكار التي تقول إن الله تعالى هو خالق أفعال العباد؛ ويأتي بعد ذلك أقوال أصحاب الرأي الآخر).

ب – العلماء الذين أخذوا بمبدأ الإختيار:

أولا: الشيخ تقي الدين النبهاني:

جاءت للشيخ جملة من الآراء والتعريفات في كتابه الشخصية الإسلامية، وقد رأى أن موضوع القضاء والقدر من الناحية التاريخية لم يطرق في العصور الإسلامية الأولى، ولكنه نشأ في المجتمع عندما حدث الإختلاط بين الثقافة الإسلامية من جهة والثقافات اليونانية والهندية والفارسية من جهة أخرى.

(1) سورة الحديد، آية (٢٢).

(2) سورة التوبة، آية (٤٦).

قال الشيخ: (موضوع البحث الذي تبنى عليه مسألة القضاء والقدر هو موضوع الثواب والعقاب، أي هل العبد ملزم على القيام بالفعل خيرا أم شرا أم هو مخير فيه، وهل له الإختيار للقيام به أو تركه أو ليس له الإختيار)[1].

ثم يبين الشيخ رأيه في الإختيار والإلزام فيقول: (القضاء والقدر هو الأفعال التي تقع في الدائرة التي تسيطر عليه والخاصيات التي يحدثها في الأشياء، ومعنى القضاء والقدر خيرهما وشرهما من الله تعالى هو الإيمان بأن أفعال الإنسان التي تحصل جبرا عنه، ولا قبل له بدفعها والخاصيات التي يحدثها في الأشياء هي من الله تعالى وليست من العبد ولا دخل للعبد فيها، وبذلك تخرج الافعال الإختيارية عن القضاء والقدر)[2].

إذن القدر عنده هو الموت والخلق والقتل الخطأ وإصابة الإنسان بالمرض، أو إعطاؤه البنين أو جعله عقيما وما إلى ذلك. وأما الأفعال الأخرى فهي أعمال اختيارية، ولذلك يجازى الإنسان ثوابا أو عقابا على أعماله إن خيرا فخير وإن شرا فشر؛ ولم يعط الشيخ الأدلة التي حعلته يتبنى هذا التعريف.

كما لم يعقب على الآيات التي استشهدت بها الفئة القائلة بأن الله

(1) الشخصية الإسلامية، تقي الدين النبهاني، ص (٧٠).

(2) الشخصية الإسلامية، تقي الدين النبهاني، ص (٧٣).

تعالى هو الذي يخلق أفعال العباد؛ فلم يفسر الآيات ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ و ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾، و﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، و ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾؛ وقد رأى الشيخ أن الخوض في القضاء والقدر أمر حق لجميع المؤمنين، لأن القضاء والقدر يتعلق بسائر أعمالنا، ولم يثبت ما يمنع ذلك.

ثانيا: الشيخ الفقيه – سيد سابق:

يقول في تعريف القدر: (هو علم الله سبحانه بما سيقع، ووقوعه حسب هذا العلم لا تأثير له في إرادة العبد، فإن العلم صفة انكشاف لا صفة تأثير، فمثلا علم الإنسان أن ابنه ذكي مقبل على دروسه ومستوعب لها حفظا وفهما ليس له تأثير على نجاحه)[1]، ونقل الشيخ عن النووي قوله: إن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه انها ستقع في أوقات معلومة عنده وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها.

ورفض الشيخ سيد سابق ادعاء من يقول عندما يقع في المعاصي، الله قدرها علينا، فقال: (روى جابر عن النبي ﷺ قال يكون في آخر الزمان قوم يعملون المعاصي ثم يقولون الله قدرها علينا، الراد عليهم يومئذ كالشاهر سيفه في سبيل الله)[2].

---

(1) ، (٣٤) ، (٣٥) العقائد الإسلامية ، سيد سابق ، ص (٩٦ – ٩٩) .

وضرب الشيخ مثلا عن الإدعاء بأن المعاصي قدرها وألزمها الناس فقال: (سرق أحد اللصوص فلما حضر بين يدي عمر رضي الله عنه سأله لم سرقت؟ فقال قدر الله ذلك، فقال عمر: اضربوه ثلاثين سوطا ثم اقطعوا يده، فقيل له ولم؟ فقال: القطع لسرقته ويضرب لكذبه على الله)[1].

ولم يعقب الشيخ سيد سابق على الآيات الكثيرة التي استدل بها القائلون بأن الله تعالى خلق أفعال العباد خيرها وشرها، بل وضع رأيه المجرد ولم يلتفت لغيره.

ثالثا: ابن تيمية:

قال ابن تيمية يصف القدرية، أي الطائفة التي كانت أول من تكلم بالقدر وأكثرت ثم أطلق عليها المعتزلة: (وكلامهم في القدرية يحكون عنهم إنكار العلم والكتاب وهؤلاء هم القدرية الذين قال ابن عمر فيهم إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برءاء مني)[2].

إذن ذلك كان سبب غضب ابن عمر منهم أنهم أنكروا علم الله بما ستفعله البشرية، وأنكروا كتابة الأفعال قبل خلق البشر.

وعلل ابن تيمية فساد قولهم هذا بما يلي: (الملائكة علمت ما سيفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدم فكيف لا يعلمه الله، سواء علموه بإعلام الله إياهم أو قالوه بالقياس على ما كان قبلهم أو بغير ذلك. والله أعلم بما سيكون من مخلوقاته، الذين لا علم لهم إلا ما علمهم وما

---

(2) الإيمان ، ابن تيمية ، ص (٣٦٤) .

أوحـاه إلى أنبيـائـه)[1].

وبـرغـم أقـوال المعـتزلـة في إنـكـار العـلم والكتـابـة فـإن ابن تيمـية يعتبــر هـذا من الغلـط الـذي يقـع فيـه المسـلم، ولا يتسـبب ذلك في تـكفيـره قـال:

(مـن كـان في قلبـه الإيمـان بـالـرسـول ﷺ ومـا جـاء بـه وقـد غلـط في بعـض مـا تـأولـه من البـدع فهـذا ليـس بـكـافـر أصـلا، والخـوارج كـانـوا من أظهـر النـاس بـدعـة وقتـالا للأمـة وتكفيـرا لهـا ولم يكـن في الصحـابة مـن يكـفرهم لا علي بن أبي طـالب ولا غيـره بـل حكمـوا فيهـم بحكـم المسـلمين الظـالميـن المعتـدين كـا ذكـرت الآثـار عنهـم ذلـك)[2].

إذن يــرى ابـن تيميــة أن القــدر هــو إحـاطــة علــم الله بمــا سـيفعلــه الإنســان، وأمــره جلــت قـدرتــه بتســجيل كـل مـا سـيحصــل في الكــون، واطـلاقـه سـبحـانه الحـرية للإنسـان ليفعـل، ثم يـكـون الجـزاء.

رابعـا: الإمـام محمود شلتـوت:

يـرى الإمـام أن الله تعـالى أعطـى الإنسـان حـريــة اختيــار الفــعل، قــال: (ومـا القضــاء والقــدر اللــذان ورد ذكـرهمــا في القــرآن – وجعلهمــا النـاس مـرتبطيـن بفعـل الإنسـان ومسـلكـه في الحيــاة – ســوى النظــام العــام الــذي خلـق الله عليـه الكـون وربـط فيـه الأسـباب والمســببات والنتــائج والمقـدمــات سـنة كـونيـة دائمـة لا تتـخلف وكان من بين تلـك السـنة أن خلـق الإنسـان حـرا

(1) الإيمان، ابن تيمية، ص (٣٦٥).
(2) الإيمان، ابن تيمية، ص (٢٠٥).

في فعـله مختـارا غيـرمقهـور ولا مجبـور)[1].

إذن من سـنة الله تعـالى في الإنسـان أن يختـار فعلـه ثم يحـاسب على اختيـاره، واسـتـشهـد الإمـام شـلتـوت بالآيـة الكـريمـة التي رفضت ادعـاء المشـركين أن مشـيئة الله هي التي أجبـرتهـم على الشـرك، قـال سـبحـانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾[2].

اسـتـشـهـد بـهـذه الآيـة لأنـها تنـكر على المشــركين ادعـاءهــم الكــاذب، فبــين الله سـبحــانه أنــهم أشـركــوا مـن أنفســهم وســوف يحاســبون علـى شـركهـم والله تعـالى يقـول لهـم: أين علمــكم أن الله أجبـركــم علـى الشــرك؟ هـذه ظنـون منـكم وأكـاذيب وتخـاريـص.

خلاصة الرأيين:

هـاتـان فئـتان مـؤمنتـان، الأولى تـرى أن الله تـعالى خـلق أفـعال العبـاد وأن الناس مجبـورون بمـا يضـعه سـبحانه في قـلوبهــم مـن الميــل للحســن أوالقبيــح وإقـدارهـم على تنـفيــذ ذلـك، فهــو ســبحانه يخــلق في أهــل الجنــة الــذين ا ختـارهـم ليـكونـوا أهـل الجنـة يخـلق فيهــم الإيمــان ويـزينــه ويسـهلــه لهــم ويقـويهـم على أداء أحـكامـه، كمـا أنـه سـبحـانه هـو الـذي يخـلق في أهـل النار

(1) الإسلام عقيدة وشريعة، ص (٥٠ – ٥١).

(2) سورة الأنعام، آية (١٤٨).

الميل للشرك ويقويهم على أفعال الشر. وتقول هذه الفئة لا نعلم سر القدر هذا فلا نخوض فيه، وعقولنا لا تستطيع فهم أسراره، ولكنا وجدنا النصوص الدالة على خلق الله تعالى أفعال العباد، ولا يجوز أن نخالف النصوص، وعلى من حدثته نفسه بوقوع ظلم من الله تعالى أن يستغفر الله وأن يتهم عقله بدل أن يتهم النصوص.

والثانية ترى أن الله تعالى خلق سننا لهذا الكون، ولا يتخلف شيء عن هذه السنن، ومن سننه سبحانه أن جعل للإنسان صورتين مما يقع، **أولاهما:** ما يفرض عليه مثل خلقه ورزقه ومماته ومرضه وما يعطى في زواجه وغير ذلك. **وثانيهما:** أفعاله التي يقوم بها وهذه من اختياراته فقد جاء الرسل وبينوا لنفوس البشر ما يرضي الله تعالى وما يغضبه، وعلى النفس أن تختار وتعلم سلفا أن أفعال الخير مصيرها الجنة وأفعال الشر مصيرها النار وذلك عند لقاء الله ونصب الموازين. فمن ثقلت موازينه فهو للجنة ون خفت موازينه فهو للنار، وكل شيء سوف يوزن؛ فمن صدق فله جزاء صدقه ومن كذب فعليه وزر كذبه، ومن أطاع والده ربح ومن عصى فقد خسر وهكذا.

كل يعزز رأيه، ليت شعري، أين الصحيح؟.

سيكون البحث القادم بيان الصواب في الموقف الحق من القضاء والقدر.

آيـات في عـدم الاختيـار!

ستتناول الآيات التي رآها بعض الشيوخ دالة على عدم الإختيار الحر، وسنقف عند تفسيرها وأقوال علماء التفسير فيها، وسنرى إن كانت تؤدي إلى المذهب الذي أخذ به بعض المفكرين الإسلاميين وهو أنه تعالى خلق الإنسان وخلق أفعاله وقدر له كل أعماله تقديرا إلزاميا ولا يستطيع المؤمن أو الكافر الإنفكاك مما قدره؛ أو لا تفيد ذلك.

١ – قال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] :

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق عدة آيات عن آلهة قوم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فإن قومه يصرون على عبادة تلك الأوثان، فجاء إبراهيم بإيمانه العميق يسأل هذه الأصنام أمام من يعبدها، وهو يريدهم أن يسمعوه، فسأل الآلهة المزعومة: ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟ ثم كسرها، فأقبل إليه قومه مسرعين في غضب شديد يودون الإنتقام منه، فقال إبراهيم بإيمان عميق ولهجة قوية صادقة:﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ ، فالسياق والمناسبة ومنطق الحوادث يدل على أن المقصود هنا الأصنام، فالله تعالى هو خالق الناس وخالق الحجارة التي يصنعون منها التماثيل، فكيف يعبدون ما زخرفوه بأيديهم ولا يعبدون الله الذي خلقهم وخلق

---

(1) سورة الصافات، آية (٩٦).

ما يزخرفونه، فاتفقوا عندما سمعوا ذلك على قذفه في النار ليحرقوه وينتقموا لآلهتهم.

لا أستطيع أن أطمئن إلى أي شرح غير ذلك، فإذا قلت: إن أبراهيم قال لقومه إن الله خلقكم وخلق أعمالكم، فكأنه يقول لهم لا ذنب عليكم، لأنه يسوغ لهم الجريمة، فأعمالهم الشائنة هي من خلق الله؛ وليس لهذا الشرح أي علاقة بسياق الآيات، وقد تكون كلمة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ اشتبهت على بعض المفكرين بأنها لا تعني صنع الأشياء، ولكني أطمئنهم إلى أن كلمة يعملون جاءت في آية اخرى بنفس المعنى أي بمعنى يصنع وذلك في قوله تعالى في سورة يس: ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾، ومعنى عملته في الآية ما صنعته من الثمر عصيرا أو دبسا أو غير ذلك؛ فالكلمة تعملون أو عملته تعني الصناعة والتصوير ولا تعني بأي حال ولا بأي فهم الصلاة والزكاة والتعبد وطاعة المولى سبحانه وتعالى في الآية الكريمة المذكورة من سورة الصافات.

إن مناسبة الآية واضحة وسياق الآيات يدل دلالة واضحة على أن الله تعالى هو الذي خلقكم وخلق هذه الحجارة التي تصنعونها فمن أولى بالعبادة؟ وإذا تركنا التأويل والتكلف كان الأمر واضحا وسهلا، وما أنا من المتكلفين.

إذن لا يجوز للقائلين بمذهب جبر الإنسان في أفعاله أو على الأقل عدم اختياره لأفعاله أن يستندوا لهذا الدليل لأنه لا يسندهم في موقفهم،

فليس كما ظنوا أن الله تعالى خلق الإنسان وخلق معه عمله، فجعل هذا صالحا وجعل هذا فاسدا وليس كما ظنوا أنا لا يجوز لنا أن نسأل عن القدر لأن القدر سر، وعقولنا لا تدرك السر، كل هذا الكلام ظنون ليس لها دليل في هذه الآية؛ والظن لا يغني من الحق شيئا.

٢ – ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾:

ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين.

استند بعض شيوخنا الذين يقولون بعدم اختيار الإنسان لأفعاله، استندوا لهذه الآية الكريمة فيما استندوا إليه، فسروا الأمر أن الله تعالى ثبط همم بعض الناس في المدينة عن الجهاد لأنه تعالى كره خروجهم فقعدوا مع القاعدين، فسبب ترك الجهاد هو الله تعالى كما في الآية.

هل هذا صحيح؟ هل الله تعالى يأمر بالجهاد ثم يثبط بعض من يريد الحرب؟ أم أن هناك سببا خاصا ومناسبة خاصة، والسبب قد يكون من هؤلاء أنفسهم، ربما لم تكن نفوسهم نقية، وكانوا كاذبين في ادعائهم بمساندة الرسول ﷺ، سنرى سياق الآيات. ولا يجوز أن نستبق النتائج.

إن الآيات الكريمة التي وردت بعد الآية السابقة تبين سبب تثبيط الله تعالى إياهم، فلو سأل أحد المؤمنين ما سبب تثبيطهم لوجد الآية التالية ترد عليه، قال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لقد

أجابت الآية عن سبب التثبيط، أو أجابت عن أسباب التثبيط العديدة، فالله تعالى اطلع على قلوبهم، وعرف نواياهم معرفة تامة شاملة، فعلم علما لا يخالطه شك ولا ريب أن خروج تلك الفئة للقتال سيضعف المسلمين، لأنهم لا يريدون للمسلمين إلا الإنهيار وإثارة الفتنة، وتحطيم قوة المؤمنين، ولذلك سيزينون للمسلمين الفرقة، وسيفرقون صفوفهم، وسوف يستمع بعض المسلمين لهم، ويستجيبون لدعواهم الباطلة، فيقع البلاء، ولهذا كله ثبطهم الله عن الخروج للقتال حتى لا يؤذوا المسلمين، إذن منع الله تعالى عن المؤمنين المقاتلين السوء بتثبيط تلك الفئة التي تضمر حقدا وسوءا.

ولذلك لا نتفق مع القائلين أن الله تعالى وضع النية في قلوب تلك الفئة وهي نية ترك الجهاد، ثم أضعف جوارحهم عن الحركة بدون سبب أو علة، ولا نتفق معهم في قولهم إن هذا سر ولا يجوز أن نسأل عنه لأن الله تعالى لا يسأل عما يفعل، كل هذه الأقوال ليس لها مكان في دراسة هذه الآية، فإن الله تعالى لم يحرمهم من الخير بل هم الذين حرموا أنفسهم، وكانت نواياهم سيئة، فجازاهم بالتثبيط والتخذيل.

لكن لا يجوز أن يفوتك في هذه المناسبة أن طائفتين من المسلمين همتا أن تفشلا يوم أحد، وهمتا أن تتركا القتال وتعودا إلى المدينة، لقد اثر فيهم ابن أبي وهو يقول بينهم: علام نقتل أبناءنا وأنفسنا؟ وصار يرجف في صفوف المسلمين، فضعفت نفوسهم، ولكن الله تعالى علم ما في قلوبهم من حب الله ورسول الله وطاعتهم لله ورسوله، يقول جابر بن

عبدالله: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، ويقول: والله ما أحب أنها لم تنزل، أي أحب نزولها. لماذا؟ قال جابر لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ ولقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فقد وصفهما بالمؤمنين، وأنعم عليهما بالولاية، ولذلك ثبتهم حاربوا مع النبي ﷺ ونالوا الأجر الذي استحقوه.

ما سبب تثبيت المولى لهم؟ السبب أن قلوبهم مؤمنة، وأنهم متوكلون على الله، وقد استجابوا لنداء جابر في الميدان إذ قال لهم: اتقوا الله، واتركوا ما أرجف به ابن أبي؛ وأزال سبحانه عن نفوسهم ما طرأ عرضا من الإرجاف والدعاية الكاذبة، والحياة الإسلامية طافحة بأمثلة عن عون الله للمؤمنين، ورعايته سبحانه لهم خوف نزعات الهوى ومضلات الفتن، لقد أيدهم سبحانه بعد ما ظنوا بالله الظنون ولكنه مطلع على سلامة قلوبهم، وأيدهم في حنين بعد أن اغتروا بقوتهم ونسوا أن يذكروا فضل الله، فأصابتهم البأساء لحظة ثم أنزل الله سكينته على الرسول والمؤمنين وأيدهم بنصره، ويوم كذا ويوم كذا....

٣- ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1]:

يقول أصحاب الرأي الأول عدم اختيار الإنسان لأفعاله: إن هذه الآية من الآيات التي ترجح ما ذهبنا إليه، لأن معناها يدل على أن الله

(1) سورة البقرة، (١٠٥) وسورة آل عمران ، آية (٧٤).

تعالى خلق الخلق وقال: هذه فئة للجنة وهذه فئة للنار، وكلمة ﴿يَخْتَصُّ﴾ هي من شأن الله تعالى، فأراد أن يختار فلانا للرحمة فيدخله الجنة ويحرم فلانا آخر منها فيدخله النار، ونحن كبشر عقولنا قاصرة عن ادراك أسرار القدر وما علينا إلا التسليم بأمره تعالى.

ولكنا نسأل: أليس الأجدر والأصوب أن نعرف سياق الآية ضمن الآيات التي وردت فيها في سورة البقرة، وهل يجوز أن نسلخ الآية عن موقعها؟ لا يجوز ذلك، إذ إنّ أي آية لا تفهم وحدها، لا بد من وضعها في سياقها الذي جاءت فيه، اقول: -

إن آية ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جاءت في سياق الرد على الكافرين من أهل الكتاب وعلى المشركين الذين أرادوا الشر لمحمد وأصحابه، واستكثروا أن يروا قرآنا ينزل على محمد الأمي الفقير ثم يتلى القرآن على صحبه ثم تسير به القوافل والركبان، لقد كرهوا ذلك وأعلنوا عن بغضائهم وأمنياتهم الشريرة، فجاء الرد القوي القويم، قال سبحانه: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وأنقل الآن كلمات للمفسر أبي بكر الجزائري، وهي معان مرادة في أكثر التفاسير، قال: " أخبر تعالى أن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين من عبدة الأوثان وغيرها لا يحبون أن ينزل عليكم من

خيـر من ربكـم سـواء كـان قـرآنا أو أي خيـر آخـر وذلـك حسـدا منهـم، وحسـد الكـافـريـن لا يمنـع فضـل الله عليـكم ورحمتـه".

وقـال المفسـرون غيـر أبي بكـر وصحبـه: الـرحمـة هي النبـوة، وهـي خيـر كثـير وخـص الله به محمدا وأمـة محمد، فسـبب هــذا حــقدا لــدى الكفــار مـن أهـل الكتـاب والمشـركين فتـواصــوا علـى التشـكيك وأن يـؤمنــوا أول النهــار ويكـفروا آخـره ليثيـروا بلبـلة في نفـوس المـؤمنيـن، كـل هــذا بسـبب الـرحمــة العظيـمة وهي النبـوة.

هـل لهـذه الآيـة أية عـلاقة بقـولهم: الله خــلق أفعــال العبــاد؟ ليـس لهـا أدنى عـلاقة، وهي لا تسـند مـوقفـهم في أي شـيء؛ أضف إلى ذلـك أن الله تـعالى بـين في آيـة أخـرى أن الـرحمـة سـتعطى لفـئة تـقيـة مـؤمنـة وليسـت مسـألة عشـوائية، قـال سـبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾(1)، وذلـك يعني أن الـرحمـة بصــورة عـامة تعـطى لمـن يطلبـها بإيمـانه وتـقواه وآدائـه الـزكـاة وتنـفيـذ ما يـأمـره الله تـعالى بــه، وقــال سـبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ﴾(2).

(1) سورة الأعراف، آية (١٥٦).

(2) سورة الجاثية، آية (٣٠).

٤ – ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[١]:

يرى القائلون بأن الله تعالى خلق الناس وخلق أفعالهم، إنه قد يسأل السائلون: ولماذا خلق الله فلانا للجنة وخلق فلانا للنار؟ وكيف يخص هذا بخيره ويحرم ذلك من عطائه؟ وأين العدالة في توفيق فلان وتخذيل فلان؟ عند ظهور مثل هذه الأسئلة يجيبون بقراءة الآية الكريمة وهي قوله سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، ويقولون إن أسرار القدر لا يدركها الناس ولا الصفوة منهم، ولا تدرك الملائكة هذه الأسرار، فالسؤال عنها خطأ يرتكبه السائلون، إن الله جلت قدرته لا يسأل عن أفعاله إن الناس هم الذين يسألون.

ويقول الإمام الغزالي في صورة واضحة جلية جدا مؤيدا لمن يرون أن الله تعالى خلق أفعال العباد؛ يقول: (إن العدالة الإلهية موجودة برغم تفضيله سبحانه ناسا على ناس بإلهامهم للإيمان وإحباطه لأناس بإلهامهم الكفر والفجور وادخال الأولين الجنة وادخال الآخرين النار)[٢]،... الخ، وقال (وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر، فقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم: لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا فأدركوا الأمور، فقيل لهم تأدبوا بأدب الله واسكتوا وإذا ذكر القدر فامسكوا فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء

---

(1) سورة الأنبياء، آية (٢٣).

(2) ، (٤٧) احياء علوم الدين ، جـ ٤، ص (٨٦) – ط بيروت.

الأبصار فلا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم)[1].

فالإمام يستشهد بالآية الكريمة (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) لبيان صحة مذهبه في أن الله تعالى خلق أفعال الناس، وعلى الناس ألا يسألوا عن ذلك لأن الله تعالى لا يسأل عن أفعاله.

هل ما ذهبوا إليه صحيح؟ الإجابة السريعة تقول لا، لم تذهب الآية إلى هذا المذهب الذي ذكروه، فقد كان سياقها بعيدا عن المعاني التي ذكرها الإمام الغزالي، فالآية هي الثالثة والعشرون من الأنبياء، والآيات السابقة لها تبين أن الله تعالى يصف فئات من البشر اتخذت آلهة في الأرض من دون الله، وادعى هؤلاء الكفرة أن آلهتهم تستطيع إحياء الموتى من ذويهم، وأقاربهم، وأهاليهم.

قال سبحانه في الآية الحادية والعشرين ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي هل تستطيع هذه الآلهة المزعومة نشر موتاهم؟ إنها لا تستطيع فعل شيئ، وقال تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ يدلل لهم سبحانه عن النظام الكامل الذي لم يفسد ولن يفسد، فلو كان ما يزعمون من تعدد الآلهة، لخرب النظام، وهنا جاء قوله سبحانه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾، فإن الله تعالى أمات البشر ولا أحد يستطيع إحياء الموتى إلا هو، وهو خلق السماء والأرض بنظام

وضعه منذ خلقهما، ولا أحد يستطيع أن يسأل الله لم فعلت ذلك؟ لـِمَ أَمَتَّ هذا الشريف وأبقيت هذا الخائن، لم خلقت شمسا واحدة، لم خلقت الغزال بهذه الصورة، لم ترزق هذا البنين وترزق هذا البنات؟ لا أحد يسأل، ويسأل هنا بمعنى يحاسب أي يسأله تعالى ليحاسبه؟ فمن يقدر على حسابه؟ لكن الله سيسأل الناس عن عبادتهم وادعاءاتهم وما بنوا عليها من مناهج فاسدة، وسوف يسأل الله تعالى الآلهة المزعومة عما ألصقوه بها من تهم أو إن كانت قبلت بتأليه الناس لها؟ وسيعلم الخلق يوم لقاء الله أن الأكاذيب والأوهام قد انكشفت، فلا الكواكب ولا الجن ولا الملائكة آلهة، وسيسأل كل العابدين لغير الله لم عبدتم هذه المخلوقات، وهناك تنكسر نفوس المشركين العابدين غير الله، ويتخاصم الطرفان العابد والمعبود، كل منهم يتنصل من صاحبه، ولكن من يستطيع أن يسأل الله ويحاسبه؟

إن **لغتنا العربية** تقود إلى هذا الفهم بوضوح وسهولة، وغفر الله لمن كلف نفسه عناء شديدا فأبعد النصوص عن مواضعها، واستشهد بها في غير محلها؛ لقد ضرب الله مثلا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وعيسى رسول كريم لم يؤله نفسه ولا طلب من الناس أن يعبدوه أو يربوه، قال سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾؟ ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾، حتى عيسى الرسول الكريم الذي جاء مبشرا بعبادة الله وهاديا بإذنه

تعالى يريدون أن يعبدوه، فسألهم سبحانه وحاسبهم أي سيسألهم ويحاسبهم.

٥ – ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾:

تقول طائفة من المفكرين: إن هذه الآية دليل على أن الله تعالى قد يأتي لقلب صالح مؤمن فيحوله إلى قلب جاحد فاسق، إذن فهو سبحانه وتعالى الذي يخلق أفعال الناس الصالحة والطالحة، وليس للناس من الأمر شيء؛ هل هذا صحيح؟

ترتيب هذه الآية في سورة آل عمران الثامنة، وهي آية دعاء، والداعون هنا مؤمنون، وقد رأوا طائفة من الناس تبحث في الآيات المتشابهة ابتغاء الفتنة، وخاف هؤلاء المؤمنون أن يحيط بهم كيد المؤولين وأحابيلهم، فدعوا الله تعالى أن يحفظهم من الكيد والفتن والمضلات، وأظن أن أي مؤمن صالح يفزع إلى الله تعالى عندما يرى خطرا داهما، فإنه يعتقد اعتقادا راسخا أن الله تعالى يعينه ويحميه ويحفظه من هذا الشر المستطير، أليس الله سبحانه وتعالى القائل ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؟

إن الآية السابقة من آل عمران أي التي سبقت الآية ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ تبين الشر المستطير عند فئات من الناس، يقول سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

يوجد ضجة، يوجد إثارة شبهات، يوجد قلوب مريضة تثير الفتن، يوجد تأويلات كاذبة مغرضه، فماذا يقول المؤمن الحق وماذا يفعل؟ يقول المفسرون أنها نزلت في نصارى نجران الذين قالوا إن الله تعالى يقول عن نفسه أنا ونحن وذلك للجماعة فهو ثالث ثلاثة، ويقول الراسخون في العلم آمنا به آي آمنا بالقرآن جميعه محكمه ومتشابهه ونرد المتشابه للمحكم، أي كلمة إنا ونحن نردها إلى سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وإلى سورة طه ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾، ومعلوم بالضرورة أنه ليس كل مؤمن راسخ في علمه، ولذلك عليه أن يدعو الله ليعينه على الشر، والمؤمنون جميعا يعلمون أن الله تعالى لا يزيغ قلب المؤمن، بل يزيده إيمانا وهدى، وقد قال سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾، وقال سبحانه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ تلك هي معاملة القلوب المؤمنة، وهي تستأنس بذكر مولاها الصمد، ولا تنام قلقة من إزاغة الله لها، لأنه تعالى يثبت القلوب المؤمنة ولا يزيغها مطلقا؟ وأجمل ما في القلوب المؤمنة أنها تفزع إلى الله عندما تحس بلظى الفتن.

ليس في الآية الكريمة ما يوحي من قريب أو بعيد أن الله تعالى

خلق فعل الشر في أحد.

وقد ذكر سيد قطب في ظلال القرآن في سورة الأعراف (١٧٢- ١٩٨) (كذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه ويُعرض عن الهدى ودلائل الإيمان، وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، قال سيد قطب اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى وأن يجري قدر الله كذلك بإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله فيه من عقل وما أعطاه من أجهزة السمع والرؤية في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون).

٦ - ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾:

وهذه الآية أيضا يستشهدون بها لبيان أن الله تعالى هو الذي برأ المصائب كلها، فما أصاب الأرض الزراعية من جفاف أو غرق أو آفات فهو من الله تعالى، وما أصاب النفوس من نقص بالموت والمرض فهو من الله تعالى، وهذه آراء لا جدال فيها، ولكنهم يقولون أيضا وهو نقطة الشك والجدال: (وقد تكون تلك المصائب أفعال الظالمين)، والمقصود بذلك أن أفعال الظالمين قد تكون بحرق المزروعات، أو أذى النفوس أو إتلاف الأموال التجارية أو غير ذلك وهذه أيضا خلقها الله فيما يرون

لأنـها جـزء مـن المصـائـب، إن هـذه النقـطة تثـيرالإعـتراض، وبتـعث علـى الشـك، لـكن ما الـذي جعلـهم يقـولـون ذلك، أي أن الله تـعالى خـلق أفـعال الظـالمين؛ أي خـلق الميـل والقـدرة في نفـس الظـالم ليـحرق ويـؤذي ويـقتـل ويـتـلف المـال.

إن رأيـهـم يـستنـد إلى كـلمـة (نـبـرأهـا) / لـذلك قـالـوا إنـها تـعني خـلق المصـائب ومنـها أفعـال الظـالمين، ويـبرز ابن حـزم أكثـر مـن غيـره مـا يـراه في كـلمـة (نـبـرأهـا) فيـقـول: (إن كـل مـا فـعلـه الله تـعالى مـن تـكليـف مـا لا يـطـاق وتـعـذيـبه عليـها وخـلقـه الـكفر والظـلم في الـكافـر ثـم تـعـذيـبهمـا عليـهمـا، كـل ذلـك من الله عـدل وحـكمـة وحـق ومـمن دونـه تـعالى سـفه وظـلم وبـاطل)؛ أرأيـت عبـارة: خـلق الـكـفر والظـلم في الـكـافـر؛ إن الآيـة لكـريـمة ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ لا تـسوغ لنا القـول إن الله تـعالى خـلق أفعـال الظـالمين، ومـا سـبب قـولهـم ذلـك إلا شـدة التـأويـل والتـكلف، لـقد حـشروا كلمـة أفعـال الظـالمين حـشرا هنـا، فـالمصـائـب التي تـشيـر إليـها الآيـة في الأرض هي مصـائب مطـر وجفـاف وغـرق وريـاح عنيفـة، والمصـائـب المشـار إليـها في النفـس مثـل المـرض والمـوت ورزق البنيـن والبنـات والـولادة والعـقـم ونـوع الخـلق وهـذه وتـلك كلـها من الله تـعالى، ولـذلك كـان آخـر الآيـة يـصـدق أولهـا، فقـال سبحـانه: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾؟ لمـاذا لا نـأسـى؟ لأنـنا لا نمـلك مـن أمـر مـا فـاتنـا شـيئا فهـو مـن الله، ثـم قـال سبحـانـه ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ

ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ لماذا لا نفرح أو نزهو أو نتكبر؟ لأننا لم نؤت أنفسنا ذلك بل هم من عطاء الله، وأنت إذا افتخرت تفتخر بعملك وإنجازك، وهنا لم تنجز شيئا فلا تفتخر ولا تفرح ولا تتكبر، بل احمده واشكره سبحانه.

وأما كلمة (نبرأها) فقد ذكر بعض القائلين بأن الله تعالى خلق أفعال الظالمين، ذكر أنها تعني: خلق المصائب، وبذلك ييسرون على أنفسهم تناسب الأفكار، لقد أخذوا بمذهب هو (خلق الله أفعال الظالمين)، فكلمة نبرأها إذن هي خلق المصائب ومن هذه المصائب ما قام به الظالمون، هل واقع الآية وسياقها يسمح بهذا الفهم أو يؤدي إليه؟

كلمة (نبرأها) لا علاقة لها بأفعال الظالمين، إن الحديث الشريف برواية عبدالله بن عمرو بن العاص في كتاب صحيح مسلم يفسر هذه الآية تفسيرا جيدا، قال النبي ﷺ: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء"؛ كلمة (يخلق) واردة في الحديث لتدل على خلق السموات والأرض، وكلمة (نبرأها) في الآية واردة على خلق السموات والأرض، وإن ما أصاب النفس أو الأرض مكتوب عند الله كما تشير الآية، وما أصابت لا تعني شرا فحسب بل هي للشروالخير، وهذا المعنى هو نفسه في الحديث الشريف وهو كتابة مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض، إن الآية والحديث متطابقان تمام التطابق، كلتاهما الآية والحديث تشير إلى خلق

مادة السموات والأرض ولا تشير إلى فعل فلان أو ظلم فلان.

وتفسير القائلين (إنه تعالى خالق أفعال الظالمين) يدل على أن كلمة (نبرأها) عندهم تعني (نخلق المصيبة)، وليس نخلق الأرض والسموات، ولا شك أننا نعلم أن المصائب يومية، يوم السبت تقع مشكلات ويوم الأحد تقع مشكلات ويوم الإثنين تقع مشكلات، وقد تكون شهرية أو سنوية، فيوم السبت هو قبل يوم الأحد، فإذا وقعت مشكلة يوم الأحد مع أحد الناس فإنه يجوز لمفسر أن يقول ربما كتبت هذه المشكلة يوم السبت، وإذا وقعت مشكلة عام ١٩٩٥ م فإنه يجوز لمفسر أن يقول ربما كتبت هذه المشكلة عام ١٩٩٤ م، لأن كلمة من ﴿قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ تعني قبل أن نخلق المصيبة بأي وقت وأي زمن، كلمة ﴿قَبْلِ﴾ واسعة المعنى تفيد، ربما أقبل يوم ربما قبل شهر ربما قبل سنة وهكذا، وهذا يعني أن الأقلام ما زالت إلى الآن مستمرة في الكتابة، وإن الصحف مفتوحة للكتابة، لكن الأحاديث الشريفة أخبرت الناس جميعاً أن (الأقلام رفعت، وإن الصحف طويت)؛ وهذا تناقض لا يحسن السكوت عليه. ونستطيع أن نستفيد من كتب اللغة في فهم معنى "نبرأ"، كتب المعاجم تفيد أن كلمة: برأ تعني خلق على غير مثال سابق، كما تعني أيضا خلق الأشياء المادية مثل: الإنسان والحيوان والنبات، وفسرت في اللغة كلمة ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ بأنها الناس. قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وأما المشركون فقال فيهم سبحانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ

﴿هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، فالمؤمنون هم خير خلق الله، والمشركون هم شر خلق الله؛ فكلمة (برأ) لا تنصرف إلا إلى الأشياء المادية، وليس لها علاقة بأفعال الإنسان الخيرة أو الشريرة، ولا علاقة لها بصلاته وصيامه وعدله وظلمه، وقد نقلت المعاجم هذه المعاني اللغوية عن ثلاثة علماء بارزين من علماء اللغة والمعاجم هم: ابن منظور مؤلف معجم لسان العرب، وابن سيده مؤلف المعجم المخصص والفراء صاحب كتاب معاني القرآن.

إذن المخلوق هنا هو السموات والأرض، والخالق هو الله سبحانه وتعالى، وليس في الآية من قريب أو بعيد إشارة إلى خلق المصائب في قلوب الظالمين ثم تنفيذها بين الناس.

٧- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

تعد هذه الآية احدى أدلة القائلين: إن الله تعالى خلق الإنسان وخلق افعاله، وقد قالوا في تفسيرها أو تأويلها ما يلي: إن طاعة الإنسان للرسل ليست مرهونة برغبة الإنسان وليست تبعا لإرادته ومشيئته، بل هي مرهونة بإذن الله تعالى له، فإن أراد له أن يطيع سمح له بالطاعة وإن أراد له أن يعصي لم يسمح له بالطاعة، وفسروا (الإذن) بانها توفيق من الله للإنسان وإقدار هذا الإنسان على الطاعة وإيجاد الميل في قلبه لها.

وهذا يعني أن هناك توفيقا لفئات من البشر وعدم توفيق لفئات

أخرى، وقد عززوا موقفهم بكلمة لمجاهد عن ابن عباس كما في تفسير ابن كثير وهي: لا يطيع أحد إلا بإذني يعني لا يطيع الرسول إلا من وفقته لذلك، وهذا يعني أن الله تعالى يوفق فئات أرادها سبحانه ولم تحظ فئات أخرى باي خير، لماذا؟ يجيب القائلون بذلك نفس الجواب العام وهو: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾؛ إن الأمر مختلف جدا عن هذا، نحن كمؤمنين نشعر بفضل الله في خلقنا وأنعمه علينا التي لا تعد ولذلك نتأدب في قولنا مع الله، ونرد ما نقوم به لتوفيق الله لأن الله سر وجودنا وصحتنا وعافيتنا وهذا أسلم من هذه الناحية. ولكن تأويلهم لا يقول بذلك؛

إن غير ابن كثير لم يقل ما قاله ابن كثير، فالتفاسير ليست على نمط واحد، ولذلك لا تستطيع أن تركن لقول مجاهد عن ابن عباس من ناحية الرواية التاريخية، فمنهم من قال بأمره ومنهم من قال بإباحته أو بعلمه، ومنهم من ترك الكلمة على حالها فقال: تكون الطاعة بإذن الله.

ولكن القواميس اللغوية على كثرتها لا تذكر (التوفيق) ولا تتعرض له، فلماذا أترك كل شيء من أجل شيء واحد يعجبني، إن العلم يقتضي الموازنة، فتذكر أكثر الآراء مع الآيات التي تتضمن معانيها وإن كانت الآية لا تسندك فلا تستشهد بها على غير وجهها، لا يجوز أن نتكلف التأويل، جميل جدا تفسير أولئك الذين ربطوا بين معانيها المعروفة في اللغة

وبين موقعها في الآية، قالوا في تفسيرها: لم نرسل رسولا إلا ليطاع بأمر الله تعالى فطاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله، إذن الأمر هنا واضح، إن الله سبحانه أرسل رسوله محمدا ﷺ إلى قريش وإلى العرب وإلى العالمين ليطاع، والطاعة أمر من أوامر الله، فالله تعالى أمر بالطاعة، وعلى الناس أن يطيعوه، ولكن هذا الأمر كغيره من الأوامر، وهذا الرسول كغيره من الرسل يتبعه ناس ويعرض عنه ناس، فأنزل الله تعالى على رسوله أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم يستطيعون العودة للحق، وذلك بأن يأتوك ويستغفروا الله، وأنت رسول الله عندئذ تستغفر لهم، وسيجدون أن الله بعد ذلك تواب رحيم. قال سبحانه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾ **[النساء: ٦٤]** .

إن الله تعالى رد الخطأ إلى نفوس المشركين، ونفوس المخطئين، وسماهم بقوله الذين ظلموا أنفسهم، ولم يقل سبحانه في هذه الآية: ولم يوفقهم، ولم يقل خذلهم، ولو كان لم يوفقهم لترك الباب مغلقا للابد أمامهم، لأن كلمته سبحانه واحدة شاملة للمستقبل كله، بل قال عليهم بالإستغفار بسبب ذنوبهم، وكان الذنب لخروجهم عن طاعة الرسول وهم بشر معرضون للخطأ، وما أسرع أن يقعوا فيه، ولذلك يحتاجون إلى رب رحيم يعودون إليه،

ففتح سبحانه الباب أمام عباد يخطئون.

إن الآية مشابهة لمئات الآيات التي يذكر فيها سبحانه أن أفرادا أو فئات أو جماعات أو طوائف تخرج عن الطاعة ولا بد أن تستغفر بسبب ذنوبها إن أرادوا أن يغفر الله لهم؛ فإن استغفرت تقبل الله توبتها وادخلها في رحمته.

٨- وما تشاءون إلا أن يشاء الله: قال سبحانه في سورة الإنسان ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

وقال سبحانه في سورة التكوير ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

تفسر طائفة من علماء المسلمين الآيتين تفسيراً جبرياً قدرياً، يقولون: ليس للإنسان مشيئة خاصة به، ولكنها صدى لمشيئة الله، فإن الله تعالى يشاء لك أن تفعل كذا ولذلك تشاء أنت أن تفعل كذا من دون أي تغيير أو تبديل، ويشاء لك أن تترك مائدة القمار فتشاء أنت بعده تركها، نفس المشيئة تتكرر، ولذلك استنتجوا أن الله تعالى هو خالق لأفعال العباد، إن الطفل الصغير يقول أنا أريد أن أذهب إلى مكان كذا، لكن هذه الإرادة ليست بكرا بل هي تقليد لقول والده قبله أنا أريد أن أذهب إلى مكان كذا، الإثنان صنوان.

هل هذا التفسير صحيح؟ هل هو مناسب لسياق آية المشيئة الواقعة ضمن الآيات الواردة في سورة الإنسان وسورة التكوير؟ أما في سورة الإنسان فإن سياق الآيات يدل على أنها تشير لفئة معينة من البشر، وهي تلك الفئة التي بذل النبي لإقناعها جهدا كبيرا ورأت معجزات الله تجري بين يديه ثم أصرت على الكفر والشرك، قال سبحانه يصفهم وأعمالهم الشريرة ويبين غضبه عليهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾إنه غضب شديد لقوم يستحقون الغضب، لقد نسوا الآخرة، وأحبوا هذه الدنيا وكأنه لا يوجد يوم ثقيل ينتظرهم، نسوا أن الله تعالى خلقهم، ولذلك يقول سبحانه يطمئن النبي: ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾؛ وجاءت الآية بعد ذلك بحكم الإعدام عليهم أو هو أشد من ذلك، قال سبحانه ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ وهم بالطبع لم يشاءوا أن يتخذوا سبيلا إلى الله، فهلكوا، أبلغهم يا رسول الله أنهم لا مشيئة لهم الآن بسبب تركهم الإيمان باليوم الآخر، ولو تراجعوا وشاءوا ما سمعت لهم، لقد علم الله ما في نفوسهم وحكم عليهم بجهنم، وهو العليم الحكيم، علم بما في نفوسهم من جحود وكفر فحكم عليهم.

إن الآية خاصة بأولئك الناس الذين سمعوا النبي ﷺ وعرفوا

المعجزات وتحقق أمامهم وعلى بصر منهم أمر رسالة النبي ثم أداروا ظهورهم حبا في الدنيا وتكذيبا للقاء الله تعالى في اليوم الآخر، إن هذه الآية لا تنطبق على الكافرين في عصرنا هذا، لأنهم لأنهم لم يروا النبي ولم يشاهدوا المعجزات، فيظل باب التوبة مفتوحا لهم إلى وقت الغرغرة، إن المقصودين في سورة الإنسان إنما هم مثل المقصودين في سورة (الكافرون) و (اللهب) و (المدثر) و (القلم) وغيرها، فقد أنذر الله تعالى فئات بأنها للنار ومن أبرزهم أبو لهب والوليد بن المغيرة وأبوجهل والأخنس بن شريق.

وأما في سورة التكوير فإن السياق يؤدي إلى نفس ما أدى سياق الآيات في سورة الإنسان، إنه كفر مطبق من المشركين وغضب من الله على ما قالوه تجديفا عن النبي، ثم حكم بأنهم من أهل النار؛ لقد سقطت مشيئتهم التي أعطوها ولا مشيئة الآن لهم.

هذه المشيئة بعيدة عن الموضوع الذي يهم العالمين، وهو هل فعلي الخير باختياري أو ليس باختياري، إن الله سبحانه وتعالى عبر عن مشيئته المطلقة في آيات عديدة، قال سبحانه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[١]. هل يستطيع أحد التدخل في هذه المشيئة؟ إن تحديد النوع هو من مشيئة الله وحده، وإن ما يخلقه سبحانه إنما هو

(1) سورة الشورى، آية (٤٩-٥٠).

من مشيئته، ولا أحد يستطيع أن يزعم أنه شريك لله في خلقه، وقال سبحانه ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ومن يستطيع أن يحدد رزقه رقما وعددا كما يشاء هو؟ لا أحد، وجهود العالمين تصب صبا في الأرزاق لتزيدها كما وكيفا، ولكن المسألة لا تتبع الهوى والجهد، ومشيئة الله في اختصاص هذا النبي بالرسالة وذلك النبي بتلك المعجزات وذلك الرجل الصالح بالحكم والعلم، إنه كله من فضله سبحانه ومشيئته؛ إن تصوير الإنسان في رحم أمه هو من شأنه ومشيئه إذ يقول سبحانه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[١]. فأنا لا أطلب ابني على المسطرة ولكني أدعوالله أن يرزقني، فهو سبحانه الذي يعطيك ابنا كامل الخلقة أو غير ذلك، ولا تملك أنت إلا الرضا، إن هذه الأرض من الله ومشيئته وقد عبر عن ذلك سبحانه بقوله ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾[٢]، وغير ذلك كثير جدا.

إن آيات المشيئة بلغت في كتاب الله حوالي مئتين وخمسين آية، وقد عبرت عن المشيئة المطلقة لله، وعبرت عن مشيئة الإنسان المحدودة فالإنسان له الحق أن يفكر ويجيد التفكير ويختار طريقه، دون إكراه أو ضغط، كل الناس في ذلك سواء، بعضهم يؤمن وبعضهم يكفر، والله تعالى فتح له الطريقين وعرفه بمعالم كل طريق، وأعطاه الإذن ليفعل

(1) سورة آل عمران، آية (٦).

(2) سورة المائدة، أية (١٧).

أو يترك، قال سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ والآيات واضحة في اعطاء الإنسان حق الفكر والقرار، والأيات واضحة أيضا في أن الطريق معروف للإنسان، كلمة هديناه تعني الإنسان أينما كان، فسبيله واضح وله أن يشكر أو يكفر.

ونحن نلمس في حياة النبي ﷺ وحياة الناس أن مشيئة الإنسان موجودة بين يديه يتصرف بها كيف يشاء، ولكنه قد لا ينجح لأن الله تعالى منعه من النجاح أو منعه من تنفيذ عمل شرير، فاليهود حاولوا قتل النبي على حين غرة في المدينة المنورة ولكن الله تعالى أخبر رسوله بالمحاولة فقام النبي وغادر مكان المؤامرة ونجا، والمشركون حاولوا دفن الإسلام كله في معاركهم المختلفة يوم بدر وأحد والخندق وحنين وغيرها ولكن الله تعالى أيد المؤمنين ووقفت مشيئته العادلة ضد المجرمين فحرمهم من النجاح في مؤامراتهم، وهكذا يشاء الإنسان ولكن لا يفترض أن ينجح في مشيئته، والمؤمن خصه الله بمساعدته في مشيئته، فساعده في تحقيق أهدافه، كان واضحا في معركة حنين أن المؤمنين أصابهم غرور بعددهم فتكبروا وتبختروا، فذاقوا نصيبا من الإنكسار حتى ذهب عنهم التكبروالتبختر، ثم أنزل سبحانه السكينة على قلب النبي وقلوب المؤمنين، فاشتد ساعدهم وفازوا، إن كل ذلك وارد في آيات واضحة

ولا يحتاج إلى أي تأويل.

لقد تحدث المشركون عن مشيئة الله كما فهموها زورا وبهتانا، وقد أبطل سبحانه زورهم وبهتانهم عن مشيئته، لقد ادعوا أن الشرك الذي هو فيهم ادّعوا أنه من إرادة رب العالمين، وما يحرمونه أو يحلونه هو من إرادة رب العالمين، ولكن الرد عليهم في آيات الله أن أظهروا علمكم لنعلم من أين جئتم به، إن ما تقولونه تخرصات، واتل هذه الآيات إن شئت فترى أن ما فيها يبين أن مشيئتهم هم الذين قادتهم للنار وللتحريم والتحليل على هواهم.

قال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۢ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍۢ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

إن مشيئة الله واضحة، وإن القدرة على الإختيار التي منحها الله للإنسان واضحة، إن الآيات الكريمة الدالة على ذلك كثيرة، إن الإنسان عندما يصدق يكون ضمن المساحة التي أوجدها الله له وعندما يكذب يكون أيضا ضمن المساحة، فتصرفاته هي من ذاته، وقد أعطاه الله تعالى إياها كإنسان مزود بعقل وتفكير وقلب، والله يصنع في ملكه ما يشاء؛ قال الشيخ سيد سابق في تفسير مشيئة الإنسان: (معناها أن الإنسان لا يشاء شيئا إلا إذا كان في حدود مشيئة الله وإرادته فمشيئة البشر ليست مشيئة مستقلة عن مشيئة الله،

والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين طريق الهداية وطريق الضلال)[1].

٩- ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ :

رأى بعض علماء المسلمين أنها تعني أن الله تعالى يحول بين الكفر والإيمان، أو يحول بين الإيمان والكفر، فإذا أراد كافر أن يؤمن فإن الله تعالى يحول بينه وبين الإيمان، وإذا اراد مؤمن أن يرتد فإن الله تعالى يحول بينه وبين الإرتداد، ورأوا أن هذه الآية تسند ما اتخذوه مذهبا وهو خلق الله تعالى لأفعال العباد.

هل تفسير الآية من مختلف الوجوه وفي سياقها ضمن عدة أيات يثبت هذا؟ لقد ذكر علماء التفسير عشرة وجوه لها، منها ما رووه عن الصحابة الأجلاء أو التابعين وهم الذين نقلوا فهمهم عن الصحابة، ومنها ما استند إلى المعاني العامة للآيات التي اقترنت بهذه الآية ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

قال أبو سعيد بن المعلى وهو أحد الصحابة الكرام: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسور الله ﷺ فلم أجبه ثم أتيته فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي فقال الرسول: ألم يقل الله تعالى استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم؟ فيكون أقرب المعاني لهذه الآية الكريمة هو: استجيبوا لأمر الله ورسوله ما دامت قلوبكم لينة مطاوعة لأنكم إذا

---

(1) العقائد الإسلامية، ص (١٠٥).

أكثرتم المعاصي وذلك بعدم الإستجابة لأمر الله ورسوله فإنه سبحانه سيسلط عليكم البلاء ومن أكثر من المعصية فإنه لا يوفق للإجابة.

إذا الأمر ترغيب للمؤمنين ليكثروا من الطاعات، فإذا أكثروا منها حماهم الله من شرور الدنيا وفتن الشيطان، وترهيب لهم من عدم الإستجابة لأن العصيان يقود للهلاك، فالطاعات هي مدار الأمر، وهي المحور والجوهر.

يوجدد سبب لقوله تعالى: إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، فإن هؤلاء الصم البكم تولوا وأعرضوا، ولذلك يقول سبحانه في الآية الثالثة والعشرين من الأنفال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، ثم جاءت الآية الرابعة والعشرون تدعو للإستجابة لأمر الله ورسوله، وتعلمهم أن الله تعالى يمنع المؤمن من الكفر، أي يمنعه من الأهواء المضلة التي قد تؤدي للكفر لأنه ما زال يستجيب لله والرسول، كما أنه تعالى يمنع المشرك من الإيمان لأنه يطلع سبحانه على نواياه الدفينة فيجدها سوداء، وأعمالهم تخوض في الشرك والإثم، والآية السابقة وصفت هذا الحال: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ ذلك وجه كفرٍ من بني الإنسان، والوجه

الآخـــر هـــم المـؤمنـــون إذ قـــالت الآيـــة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾، ثـم جـاء حكـم الله علـى جميـع البـشر، كـافرهـم الـذي لا يـرجى منه خـير ومـؤمنـهم الـذي الـذي يـستـجيـب لله والـرسـول، فقال سبحانه واعلمـوا أن الله يحـول بـين المـرء وقلـبه، فلـم يـعد سبحـانه يـسمع المـشركـين وبـذلـك منع عنـهم الخـير لأن قـلـوبـهم امتـلأت شـركـا وكـفرا وعنـادا، وهـو سـبحـانه يتـلـطف بالمؤمنـين فيـرشـدهـم بقـوله استـجيـبـوا لله وللرسول إذا دعـاكم لمـا يحـيـيكم؛ وسـيدفـع عنـكم الـزلل وميـل الهـوى.

الآيـات الثـلاث متكامـلة، وقـد حمـلـت الآيـتان وهمـا الثـانية والثـالثة والعـشرون من الأنفـال العبء للمشـركين في الشـرك وحملـتهم آثـام أنفـسهـم، وفتـحت الـرابعـة والعشـرون بـاب الخـيرللـمـؤمنـين وذلـك باستـجابتـهـم لله وللـرســول، وبـيــنت أن القــلــوب بــيد الله فهــو يخـتم علـى الأولى ويفـتح للثـانية. فـالعمـل هـو المحـور والجـوهـر.

١٠ – ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾:

من المقـصـود بـكلمـة ﴿إِلَيۡكُمُ﴾ المـؤمنـون أم جمـيع النـاس؛ يـرى بــعض علـماء المسـلمين أن المـقصـود بعـض النـاس أي الـذيــن اختـارهــم الله للجــنة لـسر لا نعـلمـه، وهـذا الشـرح يـتفـق مـع الـرأي العـام الـذي أخـذوه وهــو خـلـق الله تـعالى لأفـعـال العـبـاد، فـإن الله فيـما يقـولـون يحـبـب الإيـمـان

لطائفة من الناس فتؤمن ويخذل طائفة أخرى فتظل على كفرها، فالتحبيب هنا مثل شرح الله تعالى لصدور بعض الناس ليهديهم للإسلام، وتخذيله لآخرين بسبب أسرار لا نعلمها فيما يقولون ويذهبون إليه.

نقف عند الآيات الكريمة من سورة الحجرات من قوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ....﴾ إلى قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾، الآية الأولى هي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ هذه الآية تخاطب المؤمنين، وتشير إلى حادثة معينة وقعت مع المؤمنين، فقد جاءهم فاسق فأخبرهم كذبا أن بني خزاعة قوم الحارث بن أبي ضرار الخزاعي امتنعوا عن دفع الزكاة، وأن الحارث نفسه حاول قتله، وكتب التفسير تذكر أن الفاسق هو الوليد بن عقبة وأرسل رسول الله البعث إلى الحارث ليحاسبه على تعطيل حكم من أحكام الله، وفي هذه الأثناء كان الحارث يقول لماذا تأخر موفد رسول الله ﷺ عن الإتيان إلينا لأخذ أموال الزكاة؟ فهيّأ نفسه للسفر إلى المدينة ومعه سروات قومه فلما غشي المؤمنين في المدينة ووجد البعث حول المدينة قالوا: إن رسول الله بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال الحارث: لا والذي بعث محمدا ﷺ ما رأيته البتة، فلما دخل الحارث على الرسول قال له " منعت الزكاة وأردت قتل رسولي " قال الحارث لا

والـذي بـعثـك بالحـق ما رأيـته ولا أتـاني وما أتيــت إلا حيــن احتبــس علـي رسول رسـول الله ﷺ، فنـزلت سـورة الحـجـرات إلى قـولــه تــعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

إذن الخــطاب للمـؤمنــين، وفي هــؤلاء المـرمنيــن رسـول الله ﷺ، وتقــول الآيـة ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ ولو أطاعـكم في كثير من أخــباركم أو كثــير من آرائـكم التي تشـيرون بهـا عليــه لأصـابــكم البــلاء لمــا فيــها مـن أخــطاء ومجـافاة للحـق والحـقـيـقة، ولــكن الله تــعالى حـبــب إليــكم الإيـمــان، فــلا تــرون في رفــض الرسـول لـكثــير مـن أقـوالـكــم وأخبـاركــم عـيـبــا، بــل تـتـقـبـلـون ذلك بـكـل يسـر وسـهــولة، بـسـبــب إيـمـانــكم وبـسـبــب مــا أشـرب الله تـعالى بـه القـلـوب المـؤمنـة من كـره للكـفـر وكـره للـفــسق وكــره للعـصـيان، فالخطـاب لفـئـة من الناس تسير على نـور، والله تعالى زادهــا نــورا على نـور.

بالإيجـاز إنهـم مـؤمنـون وزادهـم الله إيـماناً، النصـوص واضحــة الــدلالة على أن المخـاطبـين هنا هـم المـؤمنـون وليـس سـائر الناس، وأن الله تـعالى يـرعى المـؤمنـين من مضـلات الهـوى والفـتن، إنـهم آمنــوا وزادهــم الله هــدى؛ هــم أقـبلـوا على الله فـأقبـل الله عليـهم؛ ولـذلـك تيـسر عليـهم كـل أعمـال الإيمـان ومقتضيـاتـه.

قـال سـيد قـطب في تـفسير الظـلال: إن القـول بـأن الفــعل جـاء نتيــجة إرادة كـامـلة من الإنسـان ليـس حـقيـقيـا وإن القــول إن الفعــل كــان نتيـجــة

المشيئة المطلقة من الله ليس حقيقيا، بل لا بد من الموازنة بين الإرادة الإنسانية والمشيئة المطلقة.

وقال: (إذا قيل أن إرادة الله تدفع الإنسان دفعاً إلى الهدى أو الضلال لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية، وإذا قيل أن إرادة الإنسان هي التي تقرر مصيره كله لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية كذلك. إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة وغيبية كذلك بين طلاقة المشيئة وسلطانها الفاعل وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم)[1]. ثم قال: (إن الذي تتجه فطرته إلى الإسلام يجد في صدره انشراحاً له هو من صنع الله قطعاً، والذي تتجه فطرته إلى الضلال يجد في صدره ضيقاً وتقبضاً وعسراً هو من صنع الله قطعاً).

(1) تفسير سورة الأنعام، آية (١٢٥).

نريد تفسيراً لا تأويلاً

إذا كثر التأويل في الأيات فإن المعاني تبتعد كثرا عن المقصود، وتتفلت منا المعاني الصحيحة ليحل محلها معاني غريبة صعبة على الفهم صعبة على التقبل، ومخالفة لروح الإسلام وهي اليسر، والتأويل يؤدي إلى التكلف والإعتسار، وهذا شيء مذموم في شريعتنا الإسلامية، لأن ديننا يسر بعيد عن التكلف، قال رسول الله ﷺ: إن هذا الدين يسر، وقال سبحانه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

إن بعض علماء المسلمين الذين قالوا بأن الله تعالى خالق لأفعال العباد قد تكلفوا كثيرا في فهم الآيات، وقد ذكروا أنهم تأولوا، وأحسوا أن التأويل صعب قد لا يفهمه مؤمنون كثيرون، ونصح بعضهم ألا تشرح الآيات التي استشهدوا بها إلا أمام بعض المؤمنين المتنورين حتى لا يثيروا في الآخرين الإستهجان والإستنكار؛ لأن عامة المسلمين قد تبهر بتلك التأويلات؛ وقد تفقدها تمييزها، وتضيع في المتاهات، فتضل بدل ان تهتدي؛ وهذه جملة من أفكارهم:

١ – ابن القيم:

قال ابن القيم: (أفعالنا مستندة إلينا ونحن محدثون لها والنصوص بذلك كثيرة في القرآن، فاعلم أن كون العبد مريدا فاعلا بعد أن لم يكن مريدا فاعلا أمر حادث فإما أن يكون له محدث أو لا، فإن لم يكن له

محدث لزم حدوث الحوادث بلا محدث وإن كان له محدث فإما أن يكون العبد أو الله فإن كان العبد فالقول في احداثه لتلك الفاعلية كالقول في إحداثها ويلزم التسلسل وهو هنا باطل لأن العبد كان بعد أن لم يكن فيمتنع أن تقوم به حوادث لا أول لها فتعين أن يكون الله هو الخالق لكون العبد مريدا فاعلا)[1].

أرأيت إلى هذا المنطلق اليوناني المتكلف، إني أستطيع أن أفهم سورا وأحاديث شريفة متعددة ولا أجد سبيلا لفهم واضح محدد لكلمات ابن القيم؛ أليس من الصواب الإقتداء بما في الكتاب والسنة من يسر؟

انظر إلى ابن القيم وهو يفسر قولة تعالى ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وقال ابن القيم[2]: (وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والارادات والحب والبغض، فالآية دالة على خلق ما في الصدور كما هي دالة على علمه سبحانه به، أي كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه).

ويعقب الأستاذ محمد سلامة جبر مؤلف كتاب " القضاء والقدر عند الأئمة الأعلام " قائلا: (أي خلق ما في الصدور من الاعتقادات والارادات والحب والبغض كما جاء في أول كلامه)[3]، أليس هذا تأويلا، إن النظر في عدة

---

(1) القضاء والقدر عند الأئمة الأعلام، ص (٢٢).

(2) شفاء العليل، لابن القيم، ص (٨٧).

(3) القضاء والقدر عند الأئمة الأعلام، ص (٢٤).

تفاسير تفيد أن الله تعالى يعلم ما في صدور الناس لأنه هو خالق الناس والصانع يعرف كل شيء عن المصنوع، فالآية لم تذكر أن الله تعالى خلق الإرادة والحب والبغض، ولو كان المقصود ذلك لجاءت الآية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ لأن كلمة ﴿مَنْ﴾ هي للإنسان، ووردت هنا لتدل على أن الله خلق الإنسان فهو سبحانه يعلم ما في صدره، ومن شاء أن يقف على كثرة التأويلات فعليه بكتاب شفاء العليل لابن القيم؛ وعندئذ سيجد أني ذكرت شيئا قليلا جدا، ذكرت غيضا من فيض، فلم هذا؟

٢ – ابن حزم:

وردت أفكاره في القضاء والقدر في كتابه المسمى " الفصل في الملل والنحل " وأذكر هاتين الآيتين، وقد أولهما على هذه الصورة:

قال سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

(إن الله تعالى لما أضلهم صاروا ضالين فاسقين حين أضلهم لا قبل ان يضلهم وكذلك إنما صاروا لا يؤمنون حين جعل بينهم وبينه حجابا وحين جعل على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرا لا قبل ذلك، وإنما صاروا كافرين حين طبع على قلوبهم لا قبل ذلك)[3]، ثم قال

---

(1) سورة البقرة، آية (٢٦).

(2) سورة الأعراف، آية (١٠١).

(3) الفصل في الملل والنح ، لابن حزم ، ص (٤٠).

يصف اخلاق الناس أو ما نسميه الجبلة قال: (ومن عرف تراكيب الاخلاق المحمودة والمذمومة علم أنه لا يستطيع أحد أن يفعل غير ما خلقه الله عز وجل فيه)[1]. وقال في تفسير ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾: (نص الله تعالى على أنه برا المصائب كلها، فهو بارئ لها والبارئ هو الخالق..... وقد تكون المصائب أفعال الظالمين باتلاف الأموال وأذى النفوس فنص تعالى على أن كل ذلك خلق له تعالى)[2].

لقد تحدثنا من قبل في تفسير آية ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ وتبين أن المفسرين يذهبون باجماع الآراء تقريبا إلى أن المقصود من قبل أن نخلق الأرض، فكل شيء كتب قبل خلق الأرض وليس قبل خلق المصيبة، وبينا أن التفاسير المختلفة واللغة تلتقي بهذا المعنى أي من قبل أن نخلق الأرض؛ فكلمة ﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ تعني خلق الأرض.

وأما الآيتان: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ و﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فإن المعنى الظاهري الذي تقبله اللغة هو: أضل الله الفاسقين، ولا تعني أن الله أضل المؤمنين، وكذلك الآية الثانية معناها أن الله تعالى طبع على قلب إنسان كافر وليس على قلب إنسان مؤمن، والمسألة لا تحتاج لبذل جهد.

---

(1) الفصل في الملل والنحل، لابن حزم ، ص (٤٢).

(2) الفصل في الملل والنحل، لابن حزم ، ص (٦١).

ولننظر للتفاسير، يقول الشوكاني ويقول محمد الأشقر الذي نقح كتاب الشوكاني المسمى فتح القدير في تفسير القرآن: وما يضل به إلا الفاسقين، هذا من كلام الله سبحانه والمعنى فسقوا فأضلهم بفسقهم حيث استخفوا بكلام ربهم.

ويقول تفسير المنتخب: لا يضل به إلا المنحرفون المتمردون، والمعنى أن المنحرف المتمرد هو الذي يضل من أمثلة الذباب والعنكبوت وأما المؤمنون فلا يضلون.

ويقول ابن كثير: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾، قال أبو العالية: هم أهل النفاق، وقال مجاهد عن بن عباس: يعرفه الكافرون فيكفرون به، وقال قتادة: فسقوا فأضلهم الله على فسقهم.

والآية الثانية تجري على نفس النسق، فلماذا التأويل الثقيل على النفس، ولماذا نترك الجملة الواضحة إلى قول غريب بعيد عن النص، كيف أجاز لنفسه أن يقول: إن الله تعالى لما أضلهم صاروا ضالين فاسقين حين أضلهم لا قبل أن يضلهم، إن الآية واضحة أنهم ضالون فاسقون، ثم ضرب الله مثلا بالذباب والعنكبوت فازدادوا ضلالة بدل أن يهتدوا.

٣ – الغزالي:

نقصد به الإمام الغزالي صاحب كتاب (إحياء علوم الدين)، لقد تناول آية ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ فأولها وحملها ما لا

تحمله من المعاني، ولقد ذكرنا تفسير الآية من قبل، يقول الغزالي: خطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظه كنه هذا الأمر والإحتواء على مجامعه فألجموا عما يطيقون خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1].

حتى الذي يريد أن يسأل عن دينه يلجمه الغزالي بلجام المنع، إن الله تعالى يقول ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولكن الغزالي يقول للسائلين عن دينهم: اسكتوا فما لهذا خلقتكم؟ كيف يتعبد الإنسان بنية خالصة وعالمنا يمنعه من سؤال يحيك في صدره، لقد استند الغزالي للآية ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾وقد ذكرنا التفسير المناسب للآية موقعاً وسياقاً، وهي لا تتعلق بالقضاء والقدر ولا تتعلق بخلق الله لأفعال العباد، إن الأية تصف مشهدا من مشاهد الآخرة حيث يسأل عباد النجوم وعباد الأشخاص وعباد الجبال وعباد غير الله لم عبدتم هذه الأشياء، كيف جاز لكم أن تتعبدوا لغير الله؟ يومئذ تنكس الرءوس، لكن هل يستطيع أحد ذلك اليوم أن يسأل الله عن فعله؟ لا. إن الآلهة المزعومة ستعلن أنهم **أخطأوا** إذ عبدوها، والله جل جلاله الكبير المتعال.

---

(1) إحياء علوم الدين ، جـ ٤ ، ص (٨٦) ، للغزالي.

كما أن الغزالي أول كثيرا في آية ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فذهب إلى أنها لأهل المكاشفة الذين (الذين شاهدوا مقابض في أيدي الملائكة المحركين للسماوات، وشاهدوا ملائكة السموات مصروفة إلى العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]. كيف تسنى له أن يغرق في البعد هكذا؟ لا أدري، هل رجع للتفاسير؟ أي تفسير أسنده؟ إن أي عودة لكتب التفسير تحصر معنى الآية المباركة بالمطر لأنه سبب من أسباب الرزق، والذين فسروا السماء على أنها لقاء الله في الآخرة وتحقيق وعود الله قالوا: أن رزقا عظيما ينتظر المؤمنين يوم القيامة، الآية تقول ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ والوعد الذي لم يتحقق بعد هو دخول المؤمنين الجنة وما فيها من خير لا يخطر على قلب بشر.

(1) القضاء والقدر، محمد سلامة جبر، ص (٣٦).

تـأويـل في سـورة الشـمـس

قــال سـبحانـــه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، هـذه الآيـات الأربـع السـابقــة لا تـحتــاج إلى اي جـهد لبـيـان مـعـانـيها، فإنـها مـعان واضحـة، ولم أجـد احـدا من المفسـرين يقـول إنـها آيات مـشـتبهات إنـها آيــات مـحكمــة المـعاني، ومـعانيــها كمــا يلي: خـلق الله النفـس وأعـطاها قـواها وصـفاتـها، ووضـع فيــها المــقدرة علـى مـعرفة الفـجـور والتـقوى والأخـذ بـهما أو تـركـهما، قـد أفـلح من زكى نفــسه بالطـاعـات وخـاب من قبح نفـسه بالمعاصي.

لـكن المـؤوليـن يقـولون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، تعـني: قـد أفـلح من زكــى الله نفـسه نفـسه، وقـد خـاب من دسـاها تـعني: قـد خـاب من دسـى الله نفــسه، يـريـدون بـذلك أن يـصلوا إلى قـاعـدة: الله خلـق أفـعال العـباد، فالله هـو الـذي يـزكي النـفـس والله هـو الـذي يـخـيــب، فــمن زكــاهم الله تــحسن اعمــالهم فـيخـلون الجـنة ومن خيـبهـم الله تـقـبـح أعمـالهـم فـيدخـلون النار؛ لـكن هــذا التـأويل لا يـسلم لهـم لا لـغة ولا مـع سياق الآيـات التي بـعدها، فـإن الآيــات التالية تـقول: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا﴾، إذن الإهـلاك بـسـبب الذنـوب التي اقـرفـوها هم بأنفسـهم، وكـذلك أتــت في كتـاب

الله أيأت أخرى هي: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، وهنا لا يستطيع المؤولون أن يؤولوا لأن الذي يفلح هو الإنسان والذي يتزكى هو الإنسان؛ فلماذا التأويل الذي يبعد الآية عن معانيها ومقاصدها.

وهناك تأويلات في عدة أيات، نسبت للقضا ء والقدر وكانت نسبتها تكلفا واعتسارا ما بعده اعتسار، وأذكر بعض الآيات وعلى الدارس أن يعود إلى التفاسير المختلفة ويعود إلى لغته العربية ليستنتج المعاني.

١. قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ **[القمر: ٤٩]**.

٢. قال سبحانه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقۡدُورًا﴾ **[الأحزاب: ٣٨]**.

٣. قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ **[آل عمران: ٧٣]**.

٤. قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا﴾ **[الفرقان: ٢]**.

كل ذلك فسر على أنه من القضاء والقدر، أي خلق الله تعالى لأفعال العباد وتقديرها الملزم عليهم، وليس لهم أي حظ في اختيار أفعالهم، فهل الآيات جاءت لتقول بهذا أم هو التأويل؟ ومثل ذلك كثير؛

إشكالات في تأويل الأحاديث والأخبار

لقد تسربت التأويلات إلى الأحاديث الشريفة والأخبار التاريخية، ففهم منها بالتاويل ان الله تعالى خالق لأفعال العباد.

اولا: الأحاديث الشريفة:

استند القائلون بأن الله تعالى خالق لافعال العباد لعدة أحاديث شريفة فهمو منها هذا الخلق، وهذا أحدها وهو برواية علي بن أبي طالب قال رسول الله ﷺ:[ما منكم من أحد من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة؛ فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما اهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾].

إن هذا الحديث من أوضح ما قيل في بابه من أثرالعمل في النتائج، لقد استأذنوا رسول الله أن يتركوا العمل فرفض، وقال لهم: كل ميسر، إذن عملك في الدنيا هو المؤشر على نتيجتك، فمن أظهر لنا أنه انسان تقي صالح يؤدي الفرائض، وصول لرحمه، طيب الحديث، حسن الفقه، يسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم نوعية الحكم الشرعي، فإنا نحكم عليه بالصلاح، لأننا نقول ما يسره الله له هذا العمل أو هذه الأعمال إلا لكونه

اقبل على الله فـأقـبل الله علـيه؛ ثم تلا رسول الله ﷺ الآية التي تـجلو هذا المعنى وتـظـهرة بمـا لا يــدع مــجالا للــشك في صــدور الصــحابة والمرمنــين مـن بـعدهم، قـال سـبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾، من قام بالفـرائـض بـل وغــير الفــرائض واتــقى الله وآمـن بلقــاء الله فــإن الله يـيسره للعـمـل الصـالح الذي يـؤدي للجـنة.

إن الحـديث يـشـير إلى عـلم الله بالغيب، يـشـير إلى النـتائـج النـهائـية الـتي لا يـعلمـها إلا الله، فـأخبرهم أن النـتائـج هـي كــذا و كــذا، وهــذه مـرتـبــطة بإيـمـان الناس وأعمـالهم، وإنكـم لتــرون في حــياتكم الآن مـن اتــجه للخــير، ومنـهم من اتـجـه للجـحـود والكـبـرياء والنـفـاق والـغل، تـقـولون لمــن اتــجه للـخير أنكم مـؤمنـون مـيسرون لليـسرى وتـقــولون للآخــرين ويــحكم لــقد يـسرتم للعـسرى، إن الله تـعالى يمـهد الطـريق لمـن في قـلبه خـير للجـنة، ويمــهد الطــريق للجـاحــدين الفـاسـقين المكـذبــين للنـار، إن هـذه الإشـارات لعــلم الغـيب تـجدها في كتـاب الله وسـنة رسوله متـطابقـة، الأحـاديـث تـنبئ أن كــل شـيء قـد كـتب قـبل خــلق الســموات والأرض، قـال الرسـول ﷺ: "كــتب الله مـقـادير الخـلائـق قـبل أن يــخلق الســموات والأرض بخـمســين ألـف ســنة وعــرشه علـى المـاء"[1]؛ وأمـا الآيـات فهـي قــوله تــعالى﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، وقوله تعـالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا

(1) كتاب صحيح مسلم، باب القدر.

فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1]. وقوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾[2]، وقال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[3]، وقال سبحانه ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾[4]، وغير ذلك كثير جدا. إن كل شيء مسجل في كتاب من قبل خلق السوات والأرض، وطويت الصحف على ما كتب قبل الخلق؛ وفي هذه الصحف وضعت النتائج، والصحف فيها أعمال الناس وفيها شقي بعمله اوسعيد بعمله.

لقد رأى بعض علماء المسلمين أن الحديث الشريف "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء " أنه يعني أن المقادير ملزمة، وليست على سبيل العلم بالغيب؛ قالوا: إن المقادير فرضت على أصحابها ولم يختر أصحابها تلك الافعال، بل هي خلقت كما خلقت الأجسام، وأعجب ممن قال بذلك؛ إنه لا يوجد في الحديث أي كلمة تدل على الإلزام، والمقادير لا تتعلق بالإنسان وحده، فالخلائق كواكب ونجوم وهواء ونبات وحيوان وبكتيريا وميكروب،

---

(1) سورة الحديد، آية (٢٢).

(2) سورة الحج، آية (٧٦).

(3) سورة الحج، آية (٧٠).

(4) سورة طه، آية (٥٢).

ولا بد من مقادير لهذه الخلائق وإلا انفلت نظام الكون، ومقادير الإنسان تتعلق بتكاثره وأمراضه وثروته وأفعاله، والآيات كثيرة التي تفرق بين العمل وبين الرزق، بين الصلاة والموت، بين الطاعة والمعصية، بين المرض والصحة، ولكل آية خصوصيتها، فالصلاة مثلا تأتي بالصورة الآتية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي قام بالصلاة، فالفعل مستند للإنسان، وأما المرض والنقص في المال والنفس ففيه صورة أخرى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾[1]، فالفعل هنا مستند إلى الله تعالى، إذن كيف نبيح لأنفسنا أن نجعل الأفعال التي أسندها الله للإنسان غير مستندة إليه، إنه سبحانه يقول: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾؟ القائلون هم الحواريون، فكيف أبيح لنفسي أن أجيء بالتأويل الآتي: الله وضع في نفوسهم القول فقالوا؟ كيف ذلك؟ والله تعالى يقول على لسان المنعم عليهم ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، فالقائلون هم ناس يتنكرون للنعمة، يقولون لا نظن الساعة آتية؛ كيف نجيء بالتأ ويل الغريب فنقول: إن الله تعالى جعل النية في قلوبهم وجعل القدرة في ألسنتهم ليقولوا: لا نظن

(1) سورة البقرة، آية (١٥٥).

الساعة آتية؟

لقد حول التاويل آلاف الآيات إلى عقد ومشكلات وتكلفات، علينا أن نرد الفعل لصاحبه، والله سبحانه رد الأفعال في كتابه لمن فعلها، كل الآيات تنطق بأنه خلق السموات والأرض، إذن الفعل مستند لله، وكل الآيات المتعلقة بالثواب والعقاب تجعل الفعل للإنسان، إذن الأفعال مستندة للإنسان لأنه قام بها وسوف يسأل عنها؛ يجب أن نفهم الافعال على صورتها التي وردت في كتاب الله من تأويل، أو تكلف، أو اعتسار، لا بد من تفسيرها ببساطة، وفهمها بيسر، وإن هذا الدين يسر؛ يجب أن نربط الآية بالآيات التي قبلها أو بعدها، لأن السياق مهم جدا في فهم المعاني للآية المقصودة ذاتها ولما حولها من الآيات، وإذا أخذنا بهذا المبدأ لم يبق لدينا مشكلة بين قدرية وجبرية وسنة ومعتزلة وشيعة، فإن سياق الآيات يفرض نفسه على الجميع.

ثانيا: الأخبار:

ورد من الأخبار شيء كثير عن محاورات أهل السنة والمعتزلة والأشاعرة والجبرية والقدرية، وذكرت في كتب الملل والنحل مجالس لهذه المحاورات، وقد استوقفتني روايتان من هذه الأخبار لأني رأيت كثيرين توقفوا عندهما واستنتجوا منهما استنتاجات مختلفة.

الخبر الاول:

ذكر هذا الخبر أبو داود في باب الهداية والضلال، واستشهد به ابن

القيم في كتابه الشفاء أي شفاء العليل في الصحيفة الـ ٨٤، وهو كما يأتي: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالجابية وهي إحدى البلدات الشامية، فحمد الله وأثنى عليه وعنده جاثليق يترجم له ما يقول، فقال عمر: ما يقول؟ قالوا يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحدا، قال عمر: كذبت أي عدو الله بل الله خلقك وقد أضلك ثم يدخلك النار أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك إن الله عز وجل خلق أهل الجنة وما هم عاملون وخلق أهل النار وما هم عاملون فقال هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه.

قال الراوي: فتفرق الناس وما يختلفون في القدر.

الخبر الثاني:

رواه الإمام مسلم، قال فيه: كان أول من تكلم في القدر – بالبصرة – معبد الجهني، فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن نريد مكة، فقلنا لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول: فلقينا عبدالله بن عمر فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر شماله فعلمت أنه سيكل الكلام إلي، فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلَنا ناس يتقفزون في هذا العلم ويطلبونه يزعمون أنه لا قدر إنما الأمر أُنُف.

قال ابن عمر: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء وأنهم برءاء مني، والذي نفسي بيده لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه في سبيل الله ما قبل اللهُ منهُ شيئا حتى يؤمن بالقدر خيره وشره.

انتهت الروايتان، وأستطيع أن أرى الحق في الرواية التي أسندت إلى ابن عمر، فإن الخبر الذي جاءه فيه مخالفة للقرآن والسنة، إنهم لا يؤمنون بكتابة المقادير، ولا يؤمنون بأن الله أنبأ أنه سجل وكتب في اللوح المحفوظ جميع أفعال الناس قبل خلقهم، إن معبدا الجهني مخطئ في قوله: الأمر أُنف، فالله تعالى قد كتب المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ومن هذه المقادير أعمار الناس وأرزاقهم وطرق وفاتهم وما يصيبهم من خير أو شر، وما سيقومون به من أعمالهم ينالون بها الثواب أو يلحق بهم من فعلها العقاب؛

إني أفهم من هذا الخبر أن معبدا نفى المكتوب، ونفى علم الله بأفعال الناس في المستقبل، فإن صح الخبر عرفنا أن معبدا جانب الحقيقة الإسلامية.

أما الخبر الأول ففيه مشتبهات؛ لقد اشتهر عن عمر زيارته لدمشق وعدم دخوله إياها بسبب الطاعون المنتشر فيها، فقال له أبو عبيدة: أتفر من قدر الله يا عمر؟ قال عمر – وكان يكره خلافه – لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم أفر من قدرالله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لي إبل فهبطت واديا له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة اليبس إن رعت الخصبة أو الجدبة رعتها بقدر الله.

والذي حل الخلاف أو الإشكال هو عبد الرحمن بن عوف الذي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليها وإذا

وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" فحمد الله عمر وأثنى عليه.

هذه الرواية شتهرت وأثبتها الإمام مسلم في كتابه الصحيح، ولم يُثبت الرواية الأخرى في الجابية، وأقول: إن رواية الجابية ليست مستساغة، وسبب ذلك ما يلي:

أولاً: هل من الإسلام أن يقول أحد لفلان: سيدخلك الله النار؛ ربما يعتنق هذا الرجل (الجاثليق) الإسلام قبل الغرغرة فيعفو الله عنه ويدخله الجنة كما وعد سبحانه.

ثانياً: هذا الرجل نصراني وأخطأ فهل يجوز ان أقطع عنقه بهذا الخطأ، إن المعتزلة الذين نفوا القدر وقالوا الأمر أُنف لم تقطع رءوسهم، والكافر ليس مطالبا بالأخذ بأراء الإسلام قبل أن يؤمن، فكيف يقول له: لولا عهد لك لقطعت عنقك، إن جميع النصارى لا يؤمنون بالقرآن ولا بالأحاديث الشريفة، وما قاله الجاثليق هو تعبير عن عدم إيمانهم، والنصارى يقولون أشد من ذلك، يقولون إن الله ثالث ثلاثة، ولا يؤمنون بالقرآن، وبرغم ذلك كله أمرنا بدعوتهم بالحسنى ومجادلتهم بالتي هي احسن. إن الرواية تتضمن مخالفات شرعية، وقد دمجها الرواة ولا تصدر عن أمير المؤمنين الذي تربى على يدي رسول الله **ص** ويعرف الحق ولا يحيد عنه.

هل القضاء والقدر ركن من الإيمان؟

ذهبت فئة من المفكرين الإسلاميين إلى أن القضاء والقدر بمفهومه المحدد لديهم هو ركن من آركان الإيمان، قالوا إن أركان الإيمان ستة هي:

١) الإيمان بالله.

٢) الإيمان بالملائكة.

٣) الإيمان بالكتب.

٤) الإيمان بالرسل.

٥) الإيمان باليوم الآخر.

٦) الإيمان بالقدر خيره وشره من الله.

أما سندها الشرعي فهو الحديث الشريف الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن سؤال جبريل عليه السلام عن عدة أمور، قال عمر: "بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فأخبره، ثم قال السائل إخبرنى عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره

وشـره من الله " وقـد عـرفهم رسول الله ﷺ أن السـائل هـــو جــبريل وقــد جــاء ليعـرفـهـم شؤون ديـنـهـم.

فـقـالت هذه الفـئة الكريـمة إن الإيـمان بالقـدر خيـره وشـــره مـن الله هـو الركن السـادس من أركان العـقـيدة الإسـلامية، وبذلك اكتـسب بـحث القــضاء والقدر أهمية عـظيـمة عنـدهم، وفسـر بـعـض رجال هذه الفـئة القـضاء والقـدر تفـسيـرا ظـنـوه صـوابا أو غلب على ظـنـهم أنه هو الصـواب، فقالوا إن القـضاء والقـدر هو أمر الله المـتعلق بافعال العـباد، فالله خلق العباد وخلق اعـمالهم، فـمن أراد سـبحانه له الجـنة يســره لهـا ومـن أراد لـه النـار يســره للعســرى؛ ومـن لم يـعـتـقد ان الإيـمان بالقـضاء والقـدر هو الـركن الســادس مـن أركـان الإيــمان فـقـد كـفر، وإذا لم يـؤمن بان الله تـعالى خلـق أعــمال النـاس فـلا يـعمــلون إلا بشـيء شــاءه لهـم، وكتــبه عليــهم، وفـرضــه على نـفـوســهم وجـعــل هـذا الفـرض يـظـهر في أمـرين أحـدهمـا أن يـضــع في قــلبه المـيل للــشيء والثـاني إنـهاض جـوارح الإنـسان للقـيام بالعمـل الـذي أراده الله له؛ من لم يـؤمن بـذلك عـده بـعـضـهم كـافـرا.

إذن الأمـر مـهم غـايـة الأهـمية، وله خـطـره وشـأنه، وليـس هناك من بـد من مـعرفة سـلامة والأقـوال وصـحـتها، ومـعـرفة وجـه الحـق فـيها.

الجــواب:

وأقـول: لم يـذكـر القـضاء والقـدر كـركـن من اركـان الإيـمان في كتاب الله سـبحانه وتـعالى، لقـد كانت آية سـورة النسـاء أكثـر الآيـات تـحـديدا لجـميع

أركان الإيمان، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[1]، فأركان الإيمان كما في الآية الكريمة خمسة، وليس فيها الركن السادس وهو القضاء والقدر على حد قول من قال ذلك؛ إذن لم يذكره القرآن وهذا وحده يكفي للتمسك بالخمسة فقط.

هذا في كتاب الله وأما في الأحاديث الشريفة فقد ورد في كتاب صحيح مسلم بشرح الإمام النووي حديثان في بيان اركان الإيمان، أحدهما يذكر القدر والثاني لا يذكره، الأول برواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الذي ذكرته قبل قليل، وأما الثاني فهو للمناسبة نفسها أي سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة ولكن برواية أبي هريرة هذه المرة، قال أبو هريرة: "كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر" قال يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لم تراه فإنه يراك" إلى آخر الحديث.

دع هذا وانظر إلى كتاب صحيح مسلم بتنقيح الشيخ المحدث محمد

---

(1) سورة النساء، آية (١٣٦).

ناصرالدين الألباني، فقد أورد حديثا واحدا فقط عن سؤال جبريل للنبي، والحديث برواية أبي هريرة، وليس في الحديث ذكر القدر ثم انظر إلى كتاب الإمام البخاري بأشهر نسخة محققة ومنقحة وهي نسخة اليونيني، فإنك تجد رواية واحدة أيضا وهي رواية أبي هريرة وهذا نصه، قال أبو هريرة: "كان النبي ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسوله وتؤمن بالبعث" ثم سأل بعد ذلك نفس الأسئلة المعروفة عن الإسلام والإحسان والساعة، ولم يذكر في هذه الرواية القضاء والقدر، لو آمنت الأمة بأن القدر هو الركن السادس لسمع بذلك البخاري ولكنه لم يسمع، فهل نكفر البخاري؟ وهل نكفرمعه الآلاف المؤلفة التي سمعته يروي حديث الإيمان ووافقت على صحته؟

لقد تعددت المصادر التي لم تذكر القضاء والقدر كركن من اركان الإيمان، فكيف أسمح لنفسي أن أكفر مسلما لم ير القضاء والقدر جزءا من العقيدة لأن إحدى روايات حديث واحد ذكرته ولكن كتاب الله لم يذكره وأصح كتاب بعد كتاب الله وهو صحيح البخاري لم يذكره، وعدة نسخ محققة لصحيح مسلم لم تذكره.

إن العقيدة هي محل الإطمئنان والرجاء لكل مسلم، ولكنا نرى موضوع القدر يثير القلق والإرتباك والتناقض، إن الثقة لم تتوفر في اعتبار القدر جزءا من العقيدة، فإنه يدور حول علم الغيب، وأمور الغيب تحتاج إلى التواتر، ولم تكن الأحاديث التي رويت بطريق الآحاد متواترة فكيف

نأخذ بها في العقيدة، قال الشيخ الإمام شلتوت: [الآحاد لا تفيد اليقين، إذا روى الخبر واحد أو عدد يسير في بعض طبقاته فإنه لا يكون متواترا مقطوعا بنسبته إلى النبي ﷺ وإنما يكون أحاديا، في إتصاله بالرسول ﷺ شبهة فلا يفيد اليقين][1]، وذكر الإمام أن ثلاثة من أئمة المذاهب يقولون بهذا الرأي وهم: الإمام مالك وأبوحنيفة والشافعي، وأحمد بن حنبل في احدى روايتين عنه وآخرون.

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية أركان الإيمان في معرض تمييزه بين الإيمان والإسلام، فلم يذكر القضاء والقدر لا مع الإيمان ولا مع الإسلام، قال ابن تيمية: [فإن الله ورسوله قد فسر الإيمان بأنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولم يُسَمِ الله الإيمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت إسلاما، بل سمى الإسلام الإستسلام له بقلبه وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به كالصلاة والزكاة خالصا لوجه الله فهذا هو الذي سماه الله إسلاما وجعله دينا][2].

لماذا لم يذكر ابن تيمية الركن السادس الذي رآه بعضهم ركنا؟

الجواب: لأنه لم يكن كذلك عند ابن تيمية، ولماذا لم يذكره الإمام

---

(1) الإسلام عقيدة وشريعة ، للإمام محمود شلتوت، ص (٥٩).

(2) الإيمان لابن تيمية، ص (٦٥).

محمود شلتوت أيضا؟ الجواب البسيط والمفيد أن العالمين الجليلين لم يجدا ما تطمئن به النفوس إلى أن القدر ركن من أركان الإيمان.

لا يجوز وضع عقيدة الإسلام في محل حوار وجدال وتناقض، كل أركان الإيمان ميسورة الفهم سهلة الهضم ولكن القدر يثير عسرا ما بعده عسر، ويؤدي إلى تناقض شديد وليس هذا هو حال العقائد، ولا أحب أن تكون عقيدتي محل جدال وخلاف.

لو ذكر القدر في كتاب الله تعالى كركن من أركان الإيمان كما ذكرت الأركان الأخرى وهي الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر لما استطاع أي مؤمن أن ينكره، ولو كانت آية بعينها مخصصة للقدر لما استطاع معبد الجهني ولا غيره أن ينكرها لأنه عندئذ سيكون مرتدا ويقتل بارتداده، ولكن الآيات التي تبناها بعض المفكرين على أنها آيات في القدر لم يتفق المفكرون على تفسيرها ومعانيها ودلالتها، فهي كما يقول فقهاء المسلمين قطعية الثبوت ظنية الدلالة، وقد ذكر الإمام النووي عبارة جيدة في هذا المعنى قال: " واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر "، لكن ما القدر الذي يقصده؟ هنا يقع الخلاف، ولا يجوز أن تكون العقيدة موضع خلاف.

هل يوجد دليل لدينا بأن أي رجل قتل بسبب رأيه المخالف في القضاء والقدر لفئة من المفكرين أو الفقهاء؟ إني لا أملك دليلا على

هذا، وقد جادلت المعتزلة في المساجد ولم يقتل الخلفاء أيا منهم، وجادل القدريون في المجالس ولم يقتلوا، وقد أوردتُ في الصفحات السابقة آراء متعارضة في القضاء والقدر فهل يكفر بعضنا بعضا أو يقتل بعضنا بعضا على ذلك؟ لا.

لا تعدو آراء القدر فيما أرى أن تكون بحثا من بحوث الإسلام، فإن لدينا بحوثا عن الزكاة والخُمس والغنائم والفيء والمزارعة وإجارة الأرض وعقوبة الزاني وزواج الزاني من الزانية وشروط صحة الصلاة والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك، وهذه البحوث فيها آراء واجتهادات، وكذلك القدر؛ فيه آراء واجتهادات، والحال نفس الحال.

مشيئة الإنسان في أفعاله

لقد تفضل سبحانه وتعالى على الإنسان فكرمه، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وهذا التكريم أخذ مناحي عدة، فالبيان باللغة والمنطق والكلمة لا يفوقه تكريم، والعقل والفكر والفهم تكريم هائل منه سبحانه وتسخير ما في السماء والأرض له ليستفيد في طعامه وشرابه وسيره وزراعته تفضل يفوق حد التصور، ولقد كانت المشيئة الإنسانية إحدى آيات التكريم، ولا يستطيع أحد أن ينكرها عليه ولو أنه بذل من الجهد لإيجاد الأدلة التي تدحض المشيئة حتى بلغ منه الجهد فإن مشيئة الإنسان منحة من فضل الله عليه، نقول هذا مستندين إلى آيات كريمة واضحة المعاني قطعية الدلالة لا يعتريها لبس ولا غموض.

آيات المشيئة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، أعطي القرار للإنسان وعليه أن يفكر ويتخذ قراره، إن مشيئته حرة في توجهها، وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾، ولا أظن أنه يوجد شيء أهم من الإيمان والكفر في الحياة، وقد جعلت المشيئة فيهما للإنسان، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ

أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾، إن شاء الإنسان اتخذ وإن لم يشأ ترك؛ فالقرار له في ذلك.

لقد أشرك المشركون في عهد النبي ﷺ في مكة، وحرَّموا على أنفسهم وعلى غيرهم أشياء لم يحرمها الله، وقد جادلهم رسول الله في ظنونهم وكذبوا عليه، وقد صور كتاب الله موقفهم في صورة شديدة قوية بلاغية، قال عز من قائل: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾.

ادعوا أن شركهم هو من مشيئة الله، وردوا فسقهم وتحليلهم وتحريمهم أشياء من تلقاء أنفسهم لمشيئة الله، فعنفهم سبحانه على هذا الموقف الكاذب، فوصفهم بالكذب والظن والتخريص، وقد ادعى المشركون في موقف آخر في مكة وفي عهد رسول الله أن الملائكة تستحق العبادة فعبدوا الملائكة وقالوا كل ذلك يتم بمشيئة الله الملزمة لنا، فغضب سبحانه من هذا الإفتراء وقال عز من قائل: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾، ونحن نرى أنه في كلتا الآيتين تأتي العبارتان: الأولى ما لهم من علم، والثانية إن هم إلا يخرصون لتدلا على خطأهم الشديد، إن ادعاءهم ان هذه الأعمال من مشيئة الله هو تخريص وجهالة وليس له صلة بأي علم صحيح، وأما

العلم الصحيح فإن هذه مشيئتهم هم لا مشيئة الله، والله تعالى أعطانا حق اتخاذ القرار لأنفسنا بعد أن بين لنا ما يجب فعله، فإما الطاعة بقرار منا وبمشيئتنا وإما العصيان بقرار من فاعليه ومشيئتهم، وبذلك يكون الجزاء الحق.

لا يجوز بعد هذا الوضوح من الآيات وبعد هذا القطع في المعاني أن يقول أحد أن الله تعالى لا يريد أن يختص شارب الخمر برحمته بل اختص هذا المصلي برحمته، لا يجوز ذلك لأن الله تعالى أعطانا المشيئة كبشر، وأرسل لنا الرسول الكريم ومعه كتاب الله وفيه جميع الآيات التي تتعلق بتصرفات البشر، فمن أخذ من هذا النبع الصافي فبمشيئته كإنسان عاقل مفكر واع قد أخذ، وإن ترك النبع الصافي فبمشيئته كإنسان عاقل فكر وقدر فغلَّب الدنيا على الدين، والله تعالى يُقبل على من أقبل عليه، من جاء الله تعالى مشياً أقبل الله تعالى عليه ركضاً، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه، كل وجزاؤه.

آيات الأفعال:

سواء علينا أكانت هذه الآيات أوامر ونواهٍ من الله تعالى بفعل كذا وترك كذا، أو كانت وصفاً لما فعله المؤمنون وغير المؤمنين من أفعال حسنة أو سيئة، فإنها تبيِّن لنا أنها مستندة للناس، وهذا يدل على أن الله تعالى قد أعطى الناس القدرة والمشيئة ضمن ما أعطى لسنن هذا

الكون فَفَعَل الإنسانُ ما أراد ولا يزال يفعل الإنسان ما يريد ولا يكون بذلك قد خرج عن السنن الكونية، فإنه من السنن الكونية للهواء كذا وللنبات كذا وللحيوان كذا وللقمر كذا وللنجم كذا ولكنه سبحانه مَيّز الإنسان بالمشيئة والقدرة على التصرف، والله تعالى أعطاه حق التصرف بها، فهو يختارها كما يشاء، وقد كذَّب سبحانه اولئك الذين أشركوا فقالوا إن مشيئة الله هي التي جعلتنا نُشرك، وكذَّب الذين عبدوا غير الله، وقال فيهم قولاً شديداً جداً سيلقون جزاءه حاسما يوم الدين، وستنكسر النفوس الكاذبة، إذن لا تردوا سوءكم لمشيئة الله، إن الله تعالى لا يرضى لكم أن تقولوا ذلك.

آيات الله تعالى كثيرة جداً في كتابه، وقد أسنَدتْ هذه الآيات الأفعال للإنسان ورغبته وإرادته وميوله وهواه، ولم تردُّها لفعل الله، فإذا قام فلان من الناس بذكر الله والصلاة وتزكية النفس، قال فيه سبحانه ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، أفلحوا لأنهم تزكوا وذكروا وصلوا، وإذا قام أناس بتفضيل الدنيا على الأخرة قال فيهم سبحانه ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾، فشلوا فنصحهم، لقد عرفنا من لغتنا العربية أن الفعل مرتبط بفاعله، فالله إذ خلق السماء والأرض وقدر فيهما الأقوات فعلينا أن نرد الفعل وهو الخلق لله جلت قدرته، وإذا سَخِرَ مؤمنٌ من مؤمنٍ أو نَبزَه بلقب سيء، أو ظَن مؤمنٌ في مؤمنٍ سوءاً نزل قوله تعالى عما فعلوا، أسند الله تعالى الأفعال هذه

لفاعليها، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾؛ إذا فعل مؤمن ذلك فعلينا أن نقول إن المؤمن مخطئ نهاه الله تعالى عن فعل ولكنه لم يستجب لأمر الله فَسخرَ من أخيه ونَبَزَهَ باللقب، نهاه عن بعض الظنون الآثمة بل عن كثير من الظنون لئلا يقع في الإثم، نهاه عن الإغتياب، فإن خالف واغتاب فقد أثم، ومرده إلى الله تعالى إن شاء عَذبَ وإن شاء غَفر، وقد كان دعاء ابراهيم في سورة ابراهيم واضحاً في تفسير هذا الموقف، قال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

الذي اتبع ملة ابراهيم وهي ملة الأسلام فقد نجا وأما الذي عصى إبراهيم فقد وقع في الإثم، إن إبراهيم ينصح ويدعو ولكن النتيجة ليست ملك يديه، إن الإنسان يفكر ويقدر ثم يؤمن أو يشرك،

(1) سورة ابراهيم، آية (٣٦).

فماذا يصنع ابراهيم عليه الصلاة والسلام، إنه يحاول أن يهدي بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وعلى الناس القرار، أيختارون هذا النجد أم النجد المعاكس، قال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾.

هذا الموقف لا يشبهه أبداً موقف فرعون في قومه، فهو موقف فساد وشرك وإفساد وإشراك، ولذلك ذم الله تعالى فرعون بسبب جهود فرعون في نشر الضلال وتأثره السيء على قومه، قال سبحانه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[1]، نجاهم الله تعالى من إضلال فرعون، وسار الإسرائيليون مع موسى في نعمة واسعة منها المن والسلوى، وقال لهم سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[2].

لماذا جعل الله تعالى كلمة ﴿تَبِعَنِى﴾ تدل على أن الإنسان هو الذي قام بالإتباع، وجعل كلمة ﴿عَصَانِى﴾ تدل على أن الإنسان هو الذي قام بالعصيان؟ السبب واضح، إن الإنسان هو الذي قرر الإتباع أو قررالعصيان والرفض، فالله تعالى جعل لهذا الإنسان المشيئة في الأخذ والترك، وجعل الجزاء مرتبا على هذه المشيئة، وقد أفاض النبي ﷺ علينا

(1) سورة طه، آية (٧٩).

(2) سورة طه، آية (٨١).

بنوره إذ قال: " رُفعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه " إن هذه الأمور الثلاث مجتمعة أو متفرقة تعني فقدان الإنسان لإرادته، إن الله تعالى لا يجازيه بعمله السيء في هذه الحالات، ولا نستطيع أن نلوي الحديث فنقول: الله جعله يخطئ وجعله ينسى وجعله يكره؛ نأخذ الحديث بتفسيره القريب، وما الحديث الشريف إلا شرح لعدة آيات في مواقف مختلفة، قال سبحانه يصف الظلم الذي أصاب عمار بن ياسر والتعذيب بالنار حتى اضطر أن يقول على الله ورسوله ما لا يجيزه الله ورسوله في الأحوال العادية، قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، يوجد إكراه من المشركين منعه من استخدام إرادته كما يريد هو، فعفا الله عنه، وقد ذكرت آيات كثيرة في القرآن أن الله تعالى تجاوز عن الإنسان المخطئ والإنسان الناسي، لأن مشيئةالإنسان بمعنى إرادته وعزمه ونيته وقصده لم تستكمل، فلا يقع الجزاء إلا بكمالها وتمامها.

إن قارئ القرآن الكريم لا يعوزه الدليل ولا تعوزه الحجج الكثيرة المتتالية ليبين أن الإنسان مسؤول أمام الله عن أعماله التي صدرت عنه واكتسبها بإرادته وعزيمته وقصده، وقد عُلقت النتائج عن نوع الإكتساب، قال سبحانه ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وقال سبحانه: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾؛ كيف نؤول في هاتين الآيتين؟ إن أي تأويل مهما صغر يُخرجُ المعنى الحق عن موضعه.

وآيـات الكـسب والإكتـساب تبـلغ الآلاف، وأُمَثِـلُ الآن بـهـذه الآيـات، وأظـن أن كـل قـارئ لكـتاب الله يـستـطيع أن يـذكر آيـات كثـيرة تـبـيـن أن الفـاعـل هـو الإنـسـان.

أ – أفعال تصدر عن الإنسان:

١. قـال سـبحانه ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾؟ **[البقـرة: ٤٤]**، هـذا فـعلـهم يـأمـرون غـيرهم بالبـر ويخـالفـون ما يـأمـرون بـه.

٢. ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ **[البقرة: ٦٥]**، لـقد اعتـدوا وعـرفـوا من اعـتـدى.

٣. ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ ﴾ **[البقـرة: ٦٨]**، مـن الـذي خـاطب موسى؟

٤. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ ﴾ **[البقرة: ١١٨]**،لـقد قـالوا ذلك القول وهم يـستـهـزئـون.

٥. ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ ﴾ **[البقرة: ١٢٧]**، إن البـنـاء ارتـفع، وفـعـه ابراهيم وابـنه.

٦. ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ ﴾ **[البقرة: ١٣٢]**، لـقد تـمت التـوصـية فـعلاً.

٧. ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ ﴾ **[البقـــــرة:**

١٤٢]، وقد قال السفهاء ذلك.

٨. ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ **[البقرة: ١٨٩]**، والسؤال وقع.

٩. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾ **[البقرة: ٢٠٠]**، لقد حجوا ونسكوا.

ويستطع قارئ القرآن أن يفتح أي سورة طويلة من كتاب الله ليخرج مئات الآيات عن الأفعال البشرية، إن هذه الأفعال التي قام بها الناس، والتي ذكرها سبحانه، لا تترك مجالا للشك أو التأويل في نسبة الأفعال لأصحابها، فإذا أمر اليهود الناس بالبر ونسوا أنفسهم فإنهم يكونون قد قاموا بهذا الفعل، وإذا أخبرنا تعالى أنهم علموا المعتدي في السبت فإنهم يكونون قد علموا، وإذا دعوا موسى لأمر معين فإنهم قد دعوه فعلاً، إن التأويل في آلاف الآيات ضار بطبيعة الإسلام كله، إن الله تعالى يبين أن الناس قاموا بهذه الأعمال لأنهم فكروا وقدروا وعملوا، وليس لأن خيوطاً تربطُهم من السماء حركتهم، إن هذا أمر غريب أن يخطر على بال مسلم؛

إن أكبر خطأ يقع فيه المسلم أن يركن إلى الغموض والتأويل، إن هذا الأمر يبعد المسلمين عن المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها.

ب – أوامر ونواه من الله تأمر بالعمل:

١. **أمر الله تعالى بالقتال:** ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أمرهم ليقاتلوا فاستجابوا وقاتلوا؛ هل من المعقول أن نُؤَوِل فنقول: أمرهم ثم وضع في قلوبهم التثاقل إلى الأرض، وسوف يعذبهم على التثاقل؛

٢. **قال سبحانه في الكيل والميزان:** ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. هل يعقل أن نُؤَوِل فنقول: الله أمر بالكيل الصحيح والوزن الصحيح وعدم البخس وعدم الفساد ثم جعل في القلوب ميلاً لعكس ذلك كله، ثم يعذب على المخالفة.

٣. **قال سبحانه في الدعاء:** ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾[1]. هذا الهدي القرآني يلغي أيَّ تأويل، لأن الله تعالى يأمر رسوله والمؤمنين من بعده بفعل محدد، إن خرجوا عنه كانوا من الظالمين، والله تعالى لا يضع ظلماً في قلب أحد، لقد رتب سبحانه الظلم على الفعل الذي صدر منهم.

٤. **قال سبحانه في مخاطبته للأرض والسماء:** ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ

(1) سورة يونس، آية (١٠٦).

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، إن جميع الشيوخ والمفسرين لا يؤولون في خطاب الله للأرض والسماء ويعدون الأمر إليهما نافذاً، فلماذا لم يعدوا الأمر للإنسان نافذاً على الناس كما كان خطاب الله تعالى نافذاًعلى الأرض والسماء؛ هنا أُمِرَتْ الأرض ببلع الماء وأُمِرَتْ السماء بالإقلاع؛ نقول ذلك من دون أي تأويل، إذن الأمر ينطبق على الجميع بدون تأويل.

٥. **قال سبحانه وتعالى يؤدب رسوله:** ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١)، النهي واضح، إذاً لا يجوز بعد هذا النهي لرسول الله ﷺ أن يطمح ببصره إلى زخارف الحياة الدنيوية، ولا تُطل النظر أو تديم النظر لثروة مشرك أو مساكنه الواسعة، أو أرضه ذات الأشجار والثمر، وقد علم الرسول بذلك كله وأطاع من غير تردد، لأن النهي هو النهي.

٦. **قال سبحانه في المحيض:** ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾، ونقول هنا أيضاً النهي هو النهي، ونفهم النهي بمعناه القريب الذي نزل ليناسب العامل والمزارع والخادم والجندي والشيخ والمثقف ونصف المثقف، نزل ليفهمه الجميع، من هنا نعلم سر قول النبي ﷺ: (إن هذا الدين يُسر).

(1) سورة الحجر ، آية (٨٨) .

إذن نرد الأفعال لأصحابها، وقد جاء في كتاب الله آلاف الآيات الدالة على أن الإنسان فعل أو أُمِرَ بفعل أو نُهي عن فعل، وقد ارتهن موقفه بهذه الأموركلها، إذ ستجمع أفعاله الحسنة وطاعاته لأمر الله، وتركه لما نهى عنه الله، وتوضع في ميزانه، يقال له: لِمَ فعلت لِمَ أطعت ولم انتهيت؟ فيقول ما فعلت من شيء إلا لرضا الله، فينجح وتثقل موازينه.

الخاتمة

لم يتفق علماء المسلمين على رأي واحد في القضاء والقدر، وكل طائفةٍ من العلماء عززت رأيها بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، فذهبت طائفة إلى أن الله تعالى خلق خلقا للجنة وخلق خلقا للنار، فألزم الناس جميعا بأقدار كتبها عليهم إلزاماً، فأما أهل الجنة فييسر لهم الأعمال التي تُدخل هؤلاء الجنة أو ييسرهم لها، وكذلك يفعل سبحانه بفئة أهل النار، وقد استندوا في ذلك لآيات عديدة وأحاديث متعددة، وذهبت طائفة أخرى من العلماء إلى رأي معاكس، وهو أن الله تعالى خلق الإنسان ومنحه القدرة الكافية للتمييز، وأرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيان منهج الحق، وكان مع الرسل صحف وكتب وأمر الناس باتباع الرسل، فمن استجاب فله أجره ومن أعرض فعليه وزره؛ وتكون الجنة أو النار جزاءً وفاقاً؛ وقد استندوا إلى آيات عدة، واحاديث شريفة متعددة أيضاً لإثبات وجهة نظرهم.

لقد لمستُ ثغرةً عند الطائفتين كلتيهما من العلماء الأفاضل، إنَّ أياً منهما لم تناقش لا جماعياً ولا فردياً الآيات التي يستند إليها الطرف الآخر، لقد أهملتها واحتسبتها غير موجودة، وإني أظن أن سر المشكلة وتضخمها هو إهمال المستندات هنا أو هناك، ولو دُرِسَت بعنايةٍ فائقةٍ، وتفسيرٍ ملتصق بمواضيع الآيات ومناسبة

الأحاديث لما صار هذا الخلاف في الرأي.

الذي قمت به، دراسة متأنية لجميع الآيات والأحاديث، وخرجتُ براي أن الله تعالى سيجازي كلاً بعمله الذي قام به بمحض رغبته ونيته للعمل، وسبحانه يعفوا عن كثير، والله تعالى أعطانا مشيئته محددة، كما أعطانا سمعا ً محدداً وبصراً محدداً وعمراً محدداً، وإن هذه المشيئة هي جزء من النظام الكوني الذي وضعه سبحانه، وليست خروجاً عن نظام أو قانون إلهي.

إن المؤمنين جميعاً مطالبون بالإجتهاد، وكان من نعمة الله عليهم أن المصيب له أجران، وأن المخطئ لم يُحرَم من الأجر، فله أجر واحد؛ إن ديننا بحرٌ عميق، ويتسعُ لأراء وجهود عارمة؛ " رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ".

المحتـــوى

الصفحة